المبحث السادس:

النظم العسكرية في عهد صلاح الدين

شرع صلاح الدين في تحصين المدن وبناء القلاع وتنظيم الجيش لصد احتمال هجمات عليه، وركز آنذاك على بناء قوات بحرية لأنه أدرك أن قوة الفرنج في البحر وضعفهم في البر، وأنه لابد من بناء أسطول حربي لمنع القوافل الفرنجية البحرية التي كانت تعزز الممالك الصليبية في ساحل الشام بالمؤن والسلاح والرجال كلما اشتد عليهم الضغط البري وبالإضافة إلى ذلك اكتشف صلاح الدين أن بنية الدولة في مصر ضعيفة ومخلخّلة وكان لابد له من إعادة تنظيم أمورها الإدارية والشرعية قبل المباشرة في مواجهة الفرنج وقد لاحظ صلاح الدين خطورة اتصال خطوط التجارة والمواصلات بين البحرين المتوسط والأحمر واختلاف مصالح تجار مدن أوروبا المتوسطية عن طموحات أمراء الممالك اللاتينية في وسط أوروبا، وغربها وشمالها فأقدم على توقيع اتفاقات تجارية معهم مقابل فك ارتباطهم مع أمراء الممالك، والثانية اكتشافه محاولة الفرنج مد سلطاتهم من ساحل الشام وفلسطين إلى البحر الأحمر واحتمال تهديد قوافل التجارة من الخلف إلى تعريض قوافل الحجاج المسلمين إلى الحجاز فأمر بإرسال جيشه إلى اليمن لتأمين خطوط التجارة البحرية وقطع الطريق إلى أعمال القرصنة والاعتداءات ضد قوافل الحجاج [1].

أولاً: تطور الإقطاع الحربي في عهد صلاح الدين:

كان الإقطاع الأيوبي يمنح مقابل الخدمات الحربية غير أنه لم يكن إقطاعاً وراثياً، كما أن منح الإقطاع بواسطة السلطان الأيوبي، ليس معناه منح ملكيات الأرض الزراعية لهذا المقطع، وليس معناه أيضاً تمتع المقطع بمتحصلات الإقطاع لفترة طويلة، بل أن منح الإقطاع يعطي المقطع مجرد الحق في أن يجمع لنفسه ولأجناده مجموعة معينة من الضرائب في مقابل الواجبات المدنية والعسكرية التي كان ملزماً بأدائها وقد بدأ صلاح الدين بتوزيع أراضي مصر على هيئة إقطاعات فمنح بعضها لأهل بيته، والبعض الآخر وزعه على أمرائه وقادة جيشه، فأقطع والده نجم الدين الإسكندرية ودمياط والبحيرة، وأقطع أخاه شمس الدين تورانشاه قوص وأسوان وعيذاب، ومما يؤيد ذلك ما ذكره المقريزي في الخطط حيث قال: وأما منذ أيام صلاح الدين يوسف بن أيوب

(1) صلاح الدين الأيوبي سقوط القدس وتحريرها ص 94، 95.

إلى يومنا هذا، فإن أراضي مصر كلها سارت تقطع للسلطان وأمرائه وأجناده [1]. ولم يقتصر توزيع الإقطاعات الحربية في عهد صلاح الدين على أرض مصر بل تعدى ذلك إلى كل البلاد التي تمكن صلاح الدين من ضمها إلى مشروع الوحدة الإسلامية واتبع عدة طرق لتوزيع تلك الإقطاعات على أمرائه وأجناده، منها ما كان غرضه منه تثبيت أقدامه في البلاد التي تخضع له مثلما حدث عندما استولى على حمص وحماه سنة 570هـ/1174م حيث أقطع لابن عمه ناصر الدين محمد بن أسد الدين شيركوه، والثانية لخاله شهاب الدين الحازمي [2]، كما استخدم صلاح الدين توزيع الإقطاعات وسيلة لتحقيق الوحدة الإسلامية يدلنا على ذلك، النداء الذي وجهه عند نزوله على البيرة، حيث كاتب ملوك الأطراف، قائلاً: من جاء مستسلماً سلمت بلاده على أن يكون من أجناد السلطان، وأتباعه ومساعديه على جهاد الكفرة [3] وكذلك مع فعله مع عماد الدين زنكي، وعز الدين مسعود صاحب الموصل، ومع صاحب عينتاب الذي قام بمراسلة السلطان معلناً دخوله في طاعته ونزوله على خدمته، فلما فتحها أقرها عليه إقطاعاً وذلك سنة 579هـ/1183م[4].

كما كان صلاح الدين يمنح رجاله الإقطاعات مكافأة لهم على ما قاموا به من أعمال جليلة، يدلنا على ذلك ما فعله صلاح الدين مع أمير حصن كيفا الذي أقطعه آمد مكافأة له نظير ما قدمه لصلاح الدين من خدمات [5]. وكذلك ما فعله مع سيف الدين المشطوب، عندما أطلقه الصليبيون من الأسر، إذا أحسن صلاح الدين استقباله، وأقطعه نابلس وأعمالها وذلك في سنة 588هـ/1192[6]، كما يلاحظ أن صلاح الدين في توزيعه للإقطاعات قد راعى الجوانب الأمنية في دولته، فوزع الإقطاعات على القبائل العربية التي كثيراً ما خانه أهلها وحملوا الغلات إلى الصليبيين، فأقطع قبيلتي جذام وثعلبة إقطاعات متفرقة في الديار المصرية، وذلك للحفاظ على الأمن وحث أولئك العربان على الاشتراك معه في الجهاد [7] ومن خصائص الإقطاع الأيوبي أنه يجيز أن ينتقل الإقطاع من مقطع إلى آخر، ولكن ذلك الانتقال لم يكن عن طريق الوراثة ولم يحدث

---

(1) الخطط للمقريزي (97/1).
(2) صلاح الدين والصليبيون، عبدالله الغامدي ص 102.
(3) مفرج الكروب (139/2).
(4) المصدر نفسه (139/2).
(5) النجوم الزاهرة (94/6).
(6) مفرج الكروب (381/2) صلاح الدين والصليبيون ص 102.
(7) النظم المالية في مصر زمن الأيوبيين ص 29.

توريث الإقطاع في عهد صلاح الدين سوى ثلاث مرات[1] وفي مقابل الموارد المتحصلة من الإقطاع، كان على المقطع مجموعة من الالتزامات التي كان يجب عليها أن يؤديها، وهي التزامات حربية مثل تقديم العساكر وقت الحرب، فضلاً عن عدد من الواجبات غير الحربية [2]، كتنفيذ المراسيم السلطانية التي كان صلاح الدين يصدرها، وإقرار الأمن داخل الإقطاع، والنظر في مصالح الرعية داخل الإقطاع [3] بالإضافة إلى ذلك كان على المقطع عدد من الواجبات المدنية، أهمها تلك التي تختص بري وزراعة الإقطاع وبعض الخدمات الخاصة بالسلطان [4]، وكان الإقطاع أحياناً يحتوي على أراضي مستصلحة نتيجة شق قنوات وجسور وكان على المقطعين أن يبذلوا كل جهدهم لكي يحسنوا هذه الأراضي المستصلحة، فضلاً عن قيام المقطع بإقامة الجسور البلدية وصيانتها، وهي السدود الزراعية الصغيرة، التي كان لها أهمية كبيرة في ري الإقطاع. أما عن الجسور السلطانية وهي السدود الزراعية الكبيرة التي شيدت لمنفعة الأقاليم فلم يكن المقطع مسؤولاً عنها من الناحية النظرية ولكن من الناحية العملية، كان المقطعون يساعدون السلطان في تشييد هذا النوع من الجسور وذلك بإمداده بالرجال والبقر والآلات وغيرها، يضاف إلى ذلك أيضاً أن المقطع كان يشترك في حفر وتطهير الترع والقنوات [5].

لقد لجأ صلاح الدين إلى نفس الأسلوب الذي اتبعه أسلافه الزنكيون في دفع رواتب الجيش، فوزع الإقطاعات على أمرائه ليكون بديلاً عما يتطلب منه من دفع رواتب للجند، فقد كان صلاح الدين يكتفي بمخاطبة المقطع عند عزمه على الجهاد ضد الصليبيين، فيسير بدوره إليه ومعه جيشه مزوداً بالعتاد والمؤن [6]، ولما كان صلاح الدين هو المصدر الأصلي لمنح الإقطاعات، فقد كان يستطيع إلغاءه في أي وقت وذلك متى تقاعس المقطع عن أداء واجبه، أو بدر منه ما يخل بالتزاماته الحربية ما حدث سنة 573هـ/1177م من أن صلاح الدين قطع أخبار جماعة من الأكراد لأجل أنهم كانوا السبب في هزيمة الجيش الإسلامي في وقعة الرملة عند تل الصافية أمام الجيش

(1) صلاح الدين والصليبيون ص 103.
(2) المصدر نفسه ص 103.
(3) المصدر نفسه ص 104.
(4) المصدر نفسه ص 105.
(5) الخطط (101/1) النظم المالية ص 34.
(6) النجوم الزاهرة (29/6) صلاح الدين والصليبيون ص 106.

الصليبي الذي كان يقوده أرناط [1]، والواقع أن نظام الإقطاع الحربي كان ذا أهمية كبيرة بالنسبة لجيش صلاح الدين [2]، كما أن نظام الإقطاع الحربي بما اشتمل عليه من واجبات، يعاقب المقطع بالإعفاء من إقطاعه متى قصر في شيء منها كان كفيلاً بإخلاص الجند واستماتتهم في القتال، فضلاً عما كان يقوم به بعض المقطعين من أعمال حربية ضداء الأعداء، فيذكر كل من ابن واصل، وابن كثير في حوادث سنة 575هـ/1179م، أن عز الدين فرخشاه الذي كان إقطاعه بعلبك آنذاك، أغار في هذه السنة على صفد، وعاد سالماً بعد أن فتك بعدد كبير من مقاتليهم، وغنم منهم غنائم كثيرة [3]، ويضاف إلى ذلك أن نظام الإقطاع الحربي، يعد من أولى موارد الدولة الأيوبية لأنه مصدر الإيراد الدائم اللازم للصرف على الجيش السلطاني، وجيوش الأمراء الإقطاعيين، فضلاً عن النفقات العسكرية الهامة للجيش زمن الحرب [4]، وبهذا يمكن القول بأن صلاح الدين بتطبيقه لنظام الإقطاع الحربي في دولته، قد وفر على نفسه مهمة تزويد جيشه كله بالسلاح والعتاد والمؤن [5].

ثانياً: ديوان الجيش الصلاحي:

كان هذا الديوان مسؤولاً عن الشؤون الخاصة بالجيش، ويتولاه أحد المطلعين على قضايا هذه المؤسسة شرط أن يكون مسلماً وله الرتبة الجليلة والمكانة الرفيعة [6]. وكان هذا الديوان بمثابة وزارة الدفاع في الوقت الحاضر، والمتولي له مسؤول عن معرفة أحوال الأجناد وتسجيل الأمور الخاصة بحضورهم وغيابهم وأوضاعهم الصحية وموتهم [7] وكان من اختصاصات ديوان الجيش، إصدار إحصاءات دورية بعدد الجيوش والمبالغ المقررة لهم، ومن خصائص ديوان الجيش ما ذكره ابن خلكان في ترجمته للملك الظاهر غياث الدين بن صلاح الدين من أنه جلس يوماً لغرض العسكر، وديوان الجيش بين يديه، فكان، كلما حضر جندي أمامه، سأله عن اسمه ليثبتوه في القوائم [8]، وقام الموظفون بديوان الجيش بتسجيل أسماء أصحاب الإقطاعات على اختلاف طبقاتهم،

---

(1) السلوك (64/1، 65) صلاح الدين والصليبيون ص 107.
(2) صلاح الدين ص 107.
(3) مفرج الكروب نقلاً عن صلاح الدين والصليبيون ص 107.
(4) النظم المالية في مصر ص40.
(5) صلاح الدين والصليبيون ص 110.
(6) الجيش الأيوبي في عهد صلاح الدين ص 120.
(7) المصدر نفسه ص 120.
(8) وفيات الأعيان (6/4، 7).

وعدد الجند التابعين لكل مقطع داخل إقطاعه، وأمام اسم كل مقطع عبر إقطاعه "رمزاً لا تصريحاً" ولعل ذلك كان من باب الحذر والسرية التي توخاها موظفو الديوان، لذا تجنب الديوان ذكر عبر الإقطاع أو متحصلة، إلا بناء مرسوم من السلطان [1]، ويبدو أن ديوان الجيش قد قام بالصرف على العمائر، والتحصينات التي كان صلاح الدين يهتم بها خاصة في مصر خوفاً من هجوم الصليبيين عليها أثناء وجوده ببلاد الشام، ولعل خير شاهد على تلك التحصينات التي أنفق عليها الأموال الطائلة، بناءه للسور الأيوبي بالقاهرة وتأسيس قلعة الجبل على طرف جبل المقطم [2]. وكذلك تحصين مدينة دمياط التي يذكر المقريزي أن تحصينها قد كلف "ألف ألف دينار" [3]، وأما أهم موظفي ديوان الجيش في عهد صلاح الدين، فيشمل الناظر، وهو الذي يعد المسؤول الأول عن كل ما يجري في الديوان، ويلي الناظر متولي الديوان ومهمته الإشراف على تنفيذ تعليمات الناظر، والمستوفي ووظيفته مطالبة الموظفين بما يجب عليهم رفعه من الحساب في أوقاته وموظفين آخرين [4].

ثالثاً: زي الأجناد:

إن الدولة الأيوبية لما طرأت على الدولة الفاطمية، وخلفتها في الديار المصرية، خالفتها في كثير من ترتيب المملكة، وغيرت غالب معالمها، وجرت على ما كانت عليه الدولة الأتابكية في عهد عماد الدين زنكي بالموصل، ثم ولده الملك العادل نور الدين محمود بالشام ومن معه، وكان من شأنهم أنهم يلبسون الكلوتات [5]، الصفر على رؤوسهم مكشوفة بغير عمائم، وذوائب شعورهم مرخاة تحتها سواء في ذلك المماليك والأمراء وغيرهم [6] وعلى العموم فزي الأجناد في الدولة الأيوبية امتداد طبيعي لزي الأجناد في الدولة الزنكية.

رابعاً: التموين:

كانت مواد التموين تحمل في مؤخرة الجيش عادة، أي في الساقة وكانت تسمى "الثقل" ولكن حدث في بعض الحملات أن وضعوا الثقل في وسط الجيش، أي بالقرب من

---

(1) النظم المالية ص 62 صلاح الدين والصليبيون ص 110.
(2) صلاح الدين والصليبيون ص 110.
(3) الخطط (215/1) صلاح الدين والصليبيون ص 110.
(4) الجيش الأيوبي في عهد صلاح الدين ص 122.
(5) المصدر نفسه ص 122.
(6) المصدر نفسه ص 122.

قلب العسكر، ويحتمل أن يكون بسبب ذلك خشيتهم من استيلاء العدو عليه والظفر به، ففي أواسط جماد الأولى سنة 584هـ/1188م رحل السلطان إلى تعبئة لقاء العدو ورتب الأطلاب وسارت الميمنة أولاً والقلب في الوسط والميسرة في الأخير ومقدمها مظفر الدين ابن زين الدين، وسار الثقل في وسط المعسكر [1]، ونجد أن الجند من جهتهم كانوا يحملون معهم بعض مواد التموين الضرورية في الجراب - الصولق - المعمول من الجلد الذي يعلق على الكتف ولدى التهيؤ للسير يتعبأ الجند بنزولهم إلى السوق والتزود بالضرورات ولعلها لم تتعدد الخبز والجبن والبصل وبعض اللحوم المجففة، وشيء من الحبوب والبقول والأثمار والتمور [2].

فلدى الاستعداد للقيام بنوبة الرملة التي انتهت بهزيمة صلاح الدين 573هـ/1177م يتحدث العماد الكاتب بأسلوبه المسجع الذي اشتهر به ويقول: نودي في الجنود: خذوا زاد عشرة أيام أخرى زيادة للاتظهار، فكتب إلى سوق العسكر للابتياع وقد أخذ السعر في الارتفاع [3] وفي الغزوات التي أعقبت موقعة حطين، وقيام الجيش الأيوبي بالإغارة على الساحل في منطقة إمارة طرابلس الصليبية سنة 584هـ/1188م نودي في الجنود: أنّا داخلون إلى الساحل، وهو قليل الأزواد، والعدو بنا في بلاده من سائر الجوانب، فاحملوا زاد شهر [4]، وحين اشتدت الضائقة على أهل عكا في الحصار الشديد الطويل، بعث الأمير بهاء الدين قراقوش من داخل المدينة يشكو إلى السلطان قلة الميرة، فرتب لهم السلطان بطسة (سفينة ضخمة) كبيرة وأرسلها، ولكي يتم دخولها إلى عكا بسلام وضع على البطسة بعض النصارى من أهل بيروت الذين كانوا قد أسلموا، لكي يستطيعوا التفاهم مع الأعداء المحاصرين ويموهوا عليهم بلغتهم ولباسهم، وللزيادة في التمويه أمرهم أن يرفعوا الصلبان على سارية البطسة، ووضعوا الخنازير على سطحها، وساروا نحو عكا، وفي الطريق اعترضهم الصليبيون، إلا أنهم استطاعوا تمرير الخديعة وإيهامهم بأنهم صليبيون ودخلوا الميناء المحاصر[5]، ومعهم الميرة وهي أربعمائة غرارة قمح وكميات من الجبن والبصل والغنم وسائر ما يحتاجون إليه [6].

وقد تكرر إرسال المؤن إلى عكا نظراً لطول مدة الحصار، وكانت تأتيها من مصر،

(1) مفرج الكروب (256/2) الجيش الأيوبي ص 127.
(2) الجيش الأيوبي في عهد صلاح الدين ص 127.
(3) سنا البرق (253/1).
(4) الجيش الأيوبي في عهد صلاح الدين ص 127.
(5) الفتح القسي ص 417 الجيش الأيوبي ص 128.
(6) مفرج الكروب (330/2).

ذات الثروة الطائلة، إضافة إلى ما كان يرسل إليها من بيروت [1]، وابتدع المسلمون من أجل ذلك مختلف السبل للحيلولة دون سقوطها ثم حلت بهم الهزيمة وسقطت عكا، وكانت صعوبة التموين أهم أسباب سقوطها، وحدث لبعض المدن التي كانت بيد الصليبيين، أن سقطت بيد الجيش الأيوبي بسبب انقطاع الميرة عنها [2]، ونجد أن الجيش الأيوبي كان يلجأ في الحروب إلى قطع طرق التموين عن عدوه لتجويعه، ومن ثم إضعافه وتسليمه، كما قام بإفساد زرع الصليبيين وكرومهم، وقطع أشجارهم في منطقة الكرك في محاولة لإضعاف صاحبها رينودي شاتيون [3]، وقام بحصد غلات العدو، حتى جف زرعهم [4].

خامساً: التعبئة العسكرية:

تعنى التعبئة مجموعة الأعمال التي يقوم بها القائد في مجال تحشيد القوات في ميدان المعركة، وسوقها إلى خطوط القتال أو تنسيق قواته للرد على هجمات العدو والانتصار عليه [5]، ولم يخرج عن هذا المعنى مفهوم التعبئة قديماً أو حديثاً، إلا أن أساليبها وصنوف جيشها والآلات، والمعدات التي يستعملها وغيرها هي التي تغيرت وأما النظام الذي سار عليه الجيش الأيوبي فهو نظام التخميس [6].

1 - نظام التخميس:

نرى أن صلاح الدين لم يكن مبتكراً لهذا النظام، بل إنه كان موجوداً قبله، ولم يختلف عمن سبقه من القادة المعروفين الذين طبقوا هذه الطريقة من حيث الأساس [7] وتنظيم الجيش الأيوبي كان على نسق كتائب يشبه ترتيب أعضاء جسم الإنسان الرئيسية، أو يشبه الصليب، فالجذع في الوسط بمثابة قلب العسكر، والرأس في المقدمة بمثابة طليعة العسكر أو المقدمة واليدان في الجهتين بمثابة جناحي الميمنة والميسرة، ثم الساقين معاً في الخلف بمثابة مؤخرة أو ساقة الجيش، ومن هذا ترى أن التنظيم على هذا

---

(1) الجيش الأيوبي في عهد صلاح الدين ص 128.
(2) الجيش الأيوبي في عهد صلاح الدين ص 129.
(3) المصدر نفسه ص 129.
(4) كتاب الروضتين نقلاً عن الجيش الأيوبي ص129.
(5) الجغرافية العسكرية ص 83، طه الهاشمي.
(6) الجيش الأيوبي في عهد صلاح الدين ص 143.
(7) المصدر نفسه ص 144.

النسق قائم على خمسة أجزاء ومنها تسمية الجيش بالخميس [1].

وكان موقع السلطان في القلب عادة ومعه الإعلام حتى يراه جميع الأمراء لتنفيذ التوجيهات التي تصدر منه، لتقويته، أو لإعادة تنظيمه حين يضطرب لسبب ما، وفي بعض الأحيان كان يتحول إلى المقدمة لإثارة حماس الجند، وليلقي الرعب في نفوس العدو، وكان صلاح الدين يصنع القادة والأمراء المعروفين على رأس الجناحين، أما على رأس المقدمة "الطلائع" فكان يصنع أصحاب الخيول السيف والرمي والخفة في الطراد والمقابلة [2].

2 - الحلقة الخاصة والمماليك السلطانية:

تكونت الحلقة السلطانية من جماعة من العساكر، تحيط بصلاح الدين، كانت بمثابة حراسة وكانت للحلقة مكانة ظاهرة في المعارك المختلفة، واضطلعت بدور واضح في فتح الساحل وقلاع الصليبيين المنيعة، ويشير ابن الأثير إلى فتح قلعة برزية المعروفة بوعورة المنطقة التي تقع فيها وحصانتها، وكيف قسم صلاح الدين جيشه إلى ثلاثة أقسام للقتال بالتناوب وحين جاء دور قوات صلاح الدين الخاصة، قاتلوا قتالاً شديداً رغم الحر الشديد[3]. وكذلك كان للحلقة الخاصة دور مشرف أثناء حصار عكا، إذ كانت تنقل مع صلاح الدين حين انتقاله بين تل الخروبة وشفرعم وتل كيسان، المواضع المحيطة بعكا، وكانت هذه الحلقة هي الوحيدة التي ظلت مع صلاح الدين بعد عودة العساكر إلى مواطنها للراحة ولقدوم فصل الشتاء في سنة 588هـ/1192م وكان أكثر من في الحلقة من العساكر المصرية[4].

ومما يؤكد على أهمية هذه الحلقة، أنها وحدها كانت في قلب الجيش الأيوبي، حسب رواية ابن شداد الذي كان ضمن الحلقة [5]، وحدث أن السلطان سار إلى جهة العدو ولم يكن معه سوى الحلقة [6]، ولعل رجال الحلقة الخاصة كان يشكلون الفرقة التي سميت باسم السلطان "الفرقة الصلاحية أو الناصرية" وقد كان المحاربون الذين ينضوون تحت إمرة قائد كبير كانوا يسمون باسمه، لأنهم كانوا من مماليكه أو غلمانه، فالنورية مماليك

(1) المصدر نفسه ص 144.
(2) مفرج الكروب (295/2) الجيش الأيوبي ص 146.
(3) الكامل في التاريخ نقلاً عن الجيش الأيوبي ص 148.
(4) الجيش الأيوبي ص 149.
(5) المصدر نفسه ص 149.
(6) المصدر نفسه ص 149.

نور الدين الدين محمود والأسدية مماليك أسد الدين شيركوه، وقد ذكر أبو شامة أن من ضمن تركات أسد الدين في مصر سنة 564هـ/1168م أنه خلف جماعة من الغلمان، خمسمائة مملوك، وهم الأسدية [1]. وهذا يعني أن الجيش الأيوبي عرف نظام المماليك، فالجيش المصري في عهد المماليك تكون من بقايا الجيوش الأيوبية التي جاء معظمها من المماليك الترك وبقايا الأكراد [2]، وأطلق على خاصة مماليك السلطان اسم الحلقة [3]، وقد سار الأيوبيون على سنة السلاجقة وأتابكتهم - عماد الدين زنكي ثم ابنه نور الدين - بالإكثار من المماليك الترك واستخدامهم في الجيش، على الرغم من أن الأيوبيين أو مؤسسي الأسرة الأيوبية، لم يكونوا أتابكة ولم يكونوا مماليك لأحد، ولا جرى على أحد من بني أيوب [4] رق.

4 - الأطلاب وأصناف الجيش حسب سلاح كل صنف:

كان الجيش الصلاحي قائم على أساس تقسيم الجيش إلى مجاميع، كانت بمثابة كتائب، يكون على رأس كل مائتي فارس أو مائة أو سبعين فارس أمير مقدم [5]. فكان يقال إن الحملة الفلانية تضم كذا من الأطلاب [6]، وكان لكل صنف من الصنوف المقاتلة والمساعدة خواص، تتميز بها عن الصنوف الأخرى، وهذا التمييز يظهر بنوع السلاح والأعتدة التي يتجهز بها، والواجبات الملقاة على عاتقه، ولا يمكن للجيش أن يتحرك بنجاح في العمليات العسكرية مالم يعمل بوفاق وتنسيق تأمين، وساعد بعضها البعض الآخر في حالات الاشتباك وكان ثمة صنفان أساسيان في الجيش الأيوبي إضافة إلى الأصناف الجانبية وهما:

أ - صنف الفرسان - الخيالة -:

وهو عصب الجيوش في ذلك وكانت مهماته الرئيسية القتال والاستطلاع أو الاستكشاف، نظراً لما تتطلب هاتان العمليتان من سرعة الحركة الضرورية في الهجوم والكشف ومطاردة العدو وقطع طرق العودة عليه للتزود من القوت والمؤن وكانوا يختارون عادة أهل النصيحة والنجدة والتجربة في الحرب للقيام بهذا الواجب، وكانوا

---

(1) كتاب الروضتين نقلاً عن الجيش الأيوبي ص 149.
(2) النجوم الزاهرة (124/6) الجيش الأيوبي ص 149.
(3) الجيش الأيوبي ص 150.
(4) المصدر نفسه ص 151.
(5) المصدر نفسه ص 153.
(6) المصدر نفسه ص 153.

يتفادون الاشتباك بالعدو عن القيام بالاستكشاف فالهدف من عملهم هو تقدير قوة العدو، وكشف مواطن الضعف فيه وكذلك يقوم الفرسان بنجدة المواضع المعرضة للخطر المفاجئ، إلا أنهم كانوا يوضعون خلف المشاة في ترتيب الصفوف، كما يذكر الطرسوسي بقوله: ولتكن الخيالة.

والأبطال من وراء الرجالة ينتظرون الحملة فإذا هموا بها فتح لهم باب يحملون منه بالتعاون مع الرجالة [1]، وأما المزايا التي كانت تبتغي أن تكتمل في الفارس الحق، فكانت تحدد من ناحية الترويض الجسدي بالقوة البدنية والإلمام بفن مواجهة العدو، كفن المصارعة - المنازلة - ومعرفة استعمال الرمح وفن الرماية [2]. وكان الفرسان يتسلحون بالسيوف والحراب الطويلة، ويرتدون الزرد والترس والخوذ، أما خيولهم فمن المحتمل أنهم كانوا يصنعون عليها التجافيف والسروج [3].

ب - صنف المشاة - الرجالة - :

وكان يؤلف القسم الأعظم من قوة الجيش ويقوم بأعباء القتال ويتحمل مشقاته ونتائجه وكانت الأسلحة التي يحملها أفراد هذا الصنف أسلحة خفيفة لأنهم يسيرون على أقدامه، فكانوا يستعملون السيوف والأقواس والرماح القصيرة، وكان المشاة يقومون بإخراج أفراد العدو من خنادقهم ويقضون عليهم [4]، ولعل أهم ما كان المشاة يكلفون به هو حماية الجيش أثناء المسير للحيلولة دون مداهمته من قبل العدو، وحراسة القوافل التي تحمل المؤن والعتاد أثناء تنقلها [5]، وفي ترتيب صفوف الجيش كان المشاة يوضعون في الصفوف الأمامية، وخلفهم الخيالة والأبطال [6].

ج - أما الصنوف الأخرى المساعدة:

فكانت تعرف بأسماء الأسلحة والأعتدة التي كانت تستعملها، والواجبات التي يقوم بها كل صنف، كصنف المنجنيقيين والدبابين والنفاطين وصنف المخابرة وصنف التموين وغيرها [7].

---

(1) الجيش الأيوبي في عهد صلاح الدين ص 154.
(2) المصدر نفسه ص 155.
(3) الحياة العسكرية عند العرب، إحسان هندي ص 166.
(4) دروس في المعلومات الجغرافية، طه الهاشمي ص 18.
(5) الجيش الأيوبي في عهد صلاح الدين ص 155.
(6) المصدر نفسه ص 155.
(7) الجيش الأيوبي في عهد صلاح الدين ص 156.

وكان صلاح الدين قبل التوجه إلى ساحة القتال يقوم بعرض الجيش وتعيين مواضع الأطلاب وسد الثغرات والخروق والتأكد من صلاحية الأسلحة التي يحملها المحارب، فقبيل التوجه إلى حطين وقف السلطان يوم العرض يرتب العسكر ترتيباً ويبوبه تبويباً ويعبه بعيداً وقريباً، وقرر لكل أميراً ولكل مقداماً مقاماً، ولكل موفق موقفاً ولكل كمين مكاناً، وعين لكل أمير موقفاً في الميمنة والميسرة لا ينتقل عنه، ولا يغيب جمعاً ولا يبرح أحد منه، وأخرج الجاليشية [1]، والرماة الكماة من كل طلب، ووصى كل حزب بما يقربه من حزب. وقال: إذا دخلنا بلد العدو فهذه هيئة عساكرنا وصورة مواردنا ومصادرنا، ومواضع أطلابنا، ومطالع أبطالنا [2] وكان ثمة شخص في الجيش مهمته النداء واستنفار الجند للقتال وشحذ الهمم، وكان موضعه قريباً من صلاح الدين، فكل ما يصدر منه من أوامر يبلغه بصوت عال إلى عموم الجيش ويسمى بالجاووش [3]. وينادي بالقوم أن يستعدوا، أو أن الحاجة تدعو الأمير الفلاني بالانتقال بأطلابه لتقديم المساعدة إلى الجهة الفلانية أثناء القتال، بعد أن أحدث العدو ثغرة فيها، أو يذكي حماس المقاتلين بنداءات مثيرة خاصة في مثل "يا للإسلام وعساكر الموحدين" [4].

سادساً: المتطوعون في الجيش الأيوبي:

إضافة إلى المقاتلين من الفرسان والمشاة النظاميين المسجلين في ديوان الجيش الأيوبي وإلى جند الإقطاع التابعين إلى الأمراء الأيوبيين والأمراء الآخرين الذين دخلوا في تبعية صلاح الدين تباعاً والذين كانوا يزودون الجيش الأيوبي بالمحاربين وقت الحاجة وإضافة إلى المماليك السلطانية، كان ثمة من تطوعوا ووضعوا أنفسهم تحت تصرف الجيشن حباً بالجهاد في سبيل الله، ورغبة منهم في تحرير الأرض الإسلامية من الاحتلال الصليبي، والواقع أن عهد الإفاقة الإسلامية بدأ بوضوح بظهور المجاهد عماد الدين زنكي مؤسس الدولة الزنكية وفي عهد ابنه نور الدين محمود الشهيد، بلغ هذا العهد ذروته أيام صلاح الدين، لقد أعاد عهد صلاح الدين إلى الأذهان أيام التطوع والجهاد الأولى في صدر الإسلام، فلا غرابة إذا وجدنا جيش صلاح الدين يضم الكثير من المتطوعين في معركة، لاسيما في حطين وفتح بيت المقدس، والمعارك اللاحقة مما استرعى انتباه المؤرخين، فذكر ابن كثير أن السلطان حين عزم على فتح بيت المقدس،

---

(1) الجاليشية: الأصل في معناها الراية العظيمة التي في رأسها خصلة من الشعر.
(2) الجيش الأيوبي في عهد صلاح الدين ص 156.
(3) الجاووش: الجاوش: الشاويش: لفظ تركي.
(4) مفرج الكروب (295/2، 326) الجيش الأيوبي ص 157.

قصده العلماء والصالحون تطوعاً [1].

وكان المتطوعون ينتمون إلى مختلف الفئات الاجتماعية من المسلمين، من أبناء القبائل والقرويين وأهل المدن، من الفقراء والأغنياء، لاسيما من الفقهاء والصوفية [2]. يقول: إن نور الدين محمود أمر بالنداء في الغزاة والمجاهدين والأحداث المتطوعة من فتيان البلدان والغرباء بالتأهب والاستعداد لمجابهة الفرنج أولي الشرك والإلحاد [3]. وكان لفظ الأحداث يستخدم للدلالة على المتطوعين، ثم اختفى اللفظ لتحل محله كلمة المتطوعين، والكلمتان تدلان على أن أفراد تلك الجماعتين لم يكونوا قوة نظامية، بل كانوا من المتطوعين [4] وفي المساجد كان الخطباء يحثون الناس على التطوع في الجيش الإسلامي فإذا ما نزل الخطباء من على منابرهم ردد المصلون الهتافات والدعوات، مقبلين زرافات ووحدانا، من جميع الجهات إلى معسكر الجيش وكان صلاح الدين يوكل إلى المتطوعين أحياناً أمر قتل الأسرى بأيديهم لاسيما من المرتدين، أو الرماة الصليبيين، كما حصل في بيت الأحزان 575هـ/1179م[5].

وإثر انتصار حطين طلب صلاح الدين من المتطوعة المتودعة والمتصوفة، أن يقتل كل واحد منهم أحد الأسرى المنتمين إلى الفرقتين الصليبيتين الداوية والاسبتارية [6]، بل إن المتطوعة قاموا بعمل مجيد يوم حطين وأسهموا في إحراز النصر بسرعة على الصليبيين، حين اندفعوا ليضرموا النار في الحشيش اليابس المحيط بالصليبيين، فتأجج عليهم استعارها وتوهج نار الضرام [7]. وكانت الريح على الفرنج فحملت حر النار والدخان إليهم فاجتمع عليهم العطش وحر الزمان وحر النار والدخان، وحر القتال على حد تعبير ابن الأثير[8]؟

سابعاً: الفرق الملحقة بالجيش:

أ- الفرقة الهندسية:

(1) البداية والنهاية نقلاً عن الجيش الأيوبي ص 158.
(2) الجيش الأيوبي ص 160.
(3) ذيل تاريخ دمشق ص 340 الجيش الأيوبي ص 160.
(4) سنا البرق الشامي (336/1) الجيش الأيوبي ص 161.
(5) الجيش الأيوبي في عهد صلاح الدين ص 161.
(6) كتاب الروضتين نقلاً عن الجيش الأيوبي ص 162.
(7) الكامل في التاريخ نقلاً عن الجيش الأيوبي ص 162.
(8) الجيش الأيوبي في عهد صلاح الدين ص 163.

كانت تصحب الجيش عادة فرقة هندسية، وأخرى طبية وكانت الأولى تقوم بمهمات تتطلب معرفة خاصة شؤون الهندسة العسكرية التي يلزمها القتال، لاسيما قتال الأسوار والخنادق، مثل نصب المعدات الحربية الثقيلة، كالمنجنيق والدبابات والأقواس الثقيلة مثل قوس الزيار والجرخ والقوس المتعددة الاتجاه، وقاذفات النفط، ثم بناء المعسكرات والأسوار لاسيما في الأماكن ذات الميزة العسكرية الحساسة، وتشييد الجسور ونسفها وردم الخنادق وحفر الآبار وتعيين مواقع ضرب الحصار، حول أسوار المدينة المنوي فتحها، وتهشيم هذه الأسوار، وتغيير مجاري الأنهار، وغيرها من الأعمال الهندسية التي هي ضمن واجبات هذه الفرقة، فلدى حصار بيت المقدس ظل صلاح الدين وجيشه يطوفون حوله طيلة خمسة أيام، وأخيراً استطاع الملمون بشؤون هندسة الأسوار العثور على المكان المناسب في الجهة الشمالية من السور، نحو باب عموداً وكنيسة صهيون، فأمر صلاح بنصب معدات الحصار عند هذا الموضع [1] وفي عام 581هـ/1185م ولدى حصار الموصل التي عجز جيش صلاح الدين من إحراز نصر عسكري مباشر عليها، رغم تكرار محاولاته بسبب متانة أسوارها، أشار عليه بعض رجاله إلى تعطيش المدينة بتحويل مجرى نهر دجلة وعرض الفكرة على رأي الفقيه العالم فخر الدين بن الدهان البغدادي، وكان مهندس زمانه.. قال: هذا ممكن ولا يتعذر، ويتيسر ولا يتعسر [2]، وجاء في كتاب بعث به صلاح الدين إلى الخليفة العباسي، والذي كتبه مستشاره المعروف القاضي الفاضل: وذكر المهندسون أهل الخبرة أنه يسهل تحويل دجلة الموصل عنه، بحيث يبعد مستقى الماء منها، وحينئذ يضطر أهلها إلى تسليمها بغير قتال، ولا حصول ضرر في تضييق ولا تزال [3]. إلا أن صلاح الدين لم ينفذ المشروع، ولعل ذلك لصعوبته وارتفاع تكاليفه وضيق الوقت واهتمامه بمشاريع أكثر أهمية[4].

ب- الفرقة الطبية:

ومصاحبة الفرقة الطبية للجيش إلى ميدان القتال لمعالجة الجرحى والمرضى كان أمراً ضرورياً وكان الأطباء ومساعدوهم يشكلون ما يشبه مستوصفاً متنقلاً فيه ما يحتاجونه من أدوية وأدوات ونقالات لحمل الجريح أو المريض، وكانت هذه المعدات تحمل على ظهر الحيوان، ثم ينصب المستوصف داخل خيام يبيت فيه المحتاج إلى

(1) الجيش الأيوبي في عهد صلاح الدين ص 161.
(2) كتاب الروضتين نقلاً عن الجيش الأيوبي ص 163.
(3) مفرج الكروب (167/2) الجيش الأيوبي ص 163.
(4) الجيش الأيوبي ص 163.

العلاج، والظاهر أن عهد صلاح الدين كان فترة انتعاش للشؤون المتعلقة بالطب وذلك لكثرة الحاجة إليها، وإغداق صلاح الدين والأمراء المال عليهم بسخاء.

والواقع أن صلاح الدين بدأ يهتم بشؤون الطب ويشجع القائمين منذ وقت مبكر من حكمه، وقد أولى الأطباء الذين خدموا البلاط الفاطمي بمصر، أو البلاط النوري الأتابكي في الشام اهتماماً كبيراً [1] ومن الأطباء الذين شاركوا في الحملات العسكرية التي يقوم بها الجيش الصلاحي، أبو زكريا أمين الدولة يحي ابن إسماعيل الأندلسي أحد تلامذة الحكيم مهذب الدين فقد كان يصاحب جيش صلاح الدين في القتال، ثم استقر في دمشق، كأكثر أطباء عصره ويبدو لنا أن سبب هذا الاستقرار في هذه المدينة يعود إلى وجود المستشفى النوري الكبير فيها؛ وقد اختيرت دمشق لقربها من ميدان القتال فكان جرحى ومرض الحرب يرسلون إليها بيسر، هذا وقد عجز أبو زكريا عن العمل في أواخر حياته، فأطلق له السلطان جامكية استمرت حتى وفاته [2]، كما فعل صلاح الدين مع أطباء آخرين أمثال ابن الدهان البغدادي، والكحال أبي الفضل سليمان المصري [3].

ومن أشهر أطباء صلاح الدين موفق الدين أبو نصر أسعد المعروف بابن المطران الدمشقي الذي عرف عنه مشاركته في غزوات السلطان وكان يعمل في البيمارستان النوري بدمشق، وله مجموعة من المصنفات الطبية منها: المقالة الناصرية في حفظ الأمور الصحية [4]، وغيرها كثير، يقول العماد الكاتب عن هذا الطبيب إنه كان بارعاً ظريفاً ويشيد بإخلاصه كثيراً، وأنه قد حظي بتقدير صلاح الدين كثيراً، فكان له شأن كبير لديه، وكانت له دراية وذكاء وفراسة [5].

هذا وكان للسلطان طبيبه الخاص يصحبه في حملاته، لأنه كان يعاني في بعض الأوقات من آلام والتياث مزاج وتظهر دمامل في ظهره حتى لامه أصحابه على قلة اعتنائه بصحته وعدم أخذ قسط كاف من الراحة، فكان يرد عليهم بقوله: إذا ركبت للجهاد زال عني الألم حتى أنزل [6] وكان الطبيب الخاص لا ينفرد بعلاج السلطان، بل يعالج كبار قادته وأمراء جيشه أيضاً، فحين مرض صاحب أربيل زين الدين يوسف

---

(1) المصدر نفسه ص 164.
(2) الجيش الأيوبي في عهد صلاح الدين ص 165.
(3) المصدر نفسه ص 165.
(4) المصدر نفسه ص 165.
(5) الفتح القسي ص 576 الجيش الأيوبي ص 165.
(6) الجيش الأيوبي ص 166.

نيالتكين بالحمى التي أودت بحياته في سنة 586هـ/1190م أثناء حصار عكا، ذهب طبيب صلاح الدين لمعالجته [1]. وكان السلطان يشرف بنفسه أحياناً على معالجة الجرحى، كما حصل بعد هزيمة المسلمين في موقعة أرسوق في شعبان 587هـ/أيلول 1191م حين جلس وطلب بإحضار الجرحى، فقام بمداواتهم [2].

ج- فرقة الموسيقى العسكرية:

بعد أن ينادي الجاويش بالعسكر أن يستعدوا، تشد الرايات، وتبدأ الكوسات [3] بالضرب وكان هذا بمثابة الموسيقى العسكرية، أو المارشات في الوقت الحاضر كجزء من عملية إثارة حماس المقاتلين [4]. وتثبت وقائع التاريخ الأيوبي أن الموسيقى العسكرية كان لها شأن كبير في الجيش حتى خصص لها مكان خاص يسمى "الطبلخاناه" أي "مكان الطبل" ويذكر المقريزي بهذا الصدد أنه بعد استقرار صلاح الدين في مصر وانتهاء الدولة الفاطمية "رتب نوبة الطبلخاناه " [5] ونظم شؤونها ويشرح القلقشندي معنى هذا المصطلح ويقول "ومعناه بيت الطبل ويشتمل على الطبول والأبواق وتوابعها من الآلآت" وقد كانت هذه الآلآت تضرب في أوقات القتال، وفي بقية الأيام "ثلاث مرات في كل يوم" [6] وكان الذي ينفر على الطبل يسمى "دبندار" والنافخ في البوق يسمى "منفر" أما الذي يضرب بالضوج النحاس بعضها على بعض، فكان يسمى "كوسى" [7]، وكانت العادة أن تضرب على الكوسات أيضاً لدى قدوم شخصية عسكرية هامة، وتنشر معها الأعلام والبيارق وتنعر البوقات، كما كان لكل مناسبة إيقاعها الخاص، تمرن على عزفها العازفون، وعلى سماعه المقاتلون، فثمة ضربات خاصة حين تدعو الحالة إلى عدم التوقف على القتال، رغم الهزيمة التي ألحقت بهم فكان "الكوس يدق ولا يفتر" [8]. وكذلك ضربات خاصة بشائر النصر، فحين وصل الخبر في شوال 587هـ/1191م بأن الأسطول الإسلامي قد استولى على مراكب الفرنج التي كانت تحمل أكثر من خمسمائة

---

(1) المصدر نفسه ص 166.
(2) مفرج الكروب (368/2) الجيش الأيوبي ص 166.
(3) الكوسات: ضوج تشبه الترس الصغير يدق بأحدهما على الآخر بايقاع مخصوص.
(4) النوادر ص 149 الجيش الأيوبي ص 166.
(5) الجيش الأيوبي ص 167.
(6) المصدر نفسه ص 167.
(7) صبح الأعشى (13/4).
(8) الجيش الأيوبي ص 167.

صليبي، سر المسلمون بذلك، وضربت بشائر النصر، ونعق بوق الظفر [1].

د- حملة أعلام الجيش:

كان ضمن الجيش جماعة مهمتهم حملة الراية السلطانية والحفاظ عليها، والراية أو العلم بمثابة الشارة التي تميز جماعة عن جماعة أخرى، ودولة عن أخرى، فكان لكل دولة إسلامية وغير إسلامية علمها الخاص الذي يتخذ من لون أو رنك [2]، وكان لون العلم الصلاحي أصفر وفي وسطه صورة طير النسر علامة القوة والثقة في النصر [3]. وكان بين الرايات: راية عظيمة من حرير أصفر مطرزة بالذهب عليها ألقاب السلطان واسمه، وتسمى العصابة وراية عظيمة في رأسها خصلة من الشعر تسمى الجاليش، ورايات صفر صغار تسمى السناجق [4]. وكانت الراية الكبيرة تحمل عادة في ركب السلطان [5]. وعن الراية الصلاحية يتحدث العماد لدى فتح الجيش الأيوبي لصيدا سنة 583هـ/1187م يقول: جاء رسل صاحبها بمفاتيحها وأذهبنا ظلماتها من العزائم العز بمصابيحها، وطلعت الراية الصفراء باليد البيضاء على سورها [6].

هذا وقد ورد ذكر الراية الصلاحية في مجموعة من قصائد شعراء ذلك العصر في المناسبات التي أحرز فيها الجيش الأيوبي نصراً على الصليبيين ورفع فيها العلم الأيوبي، فلدى انتصار المسلمين عليهم وتخريب بيت الأحزان سنة 575هـ/1179م هنأه جماعة من الشعراء بالفتح منهم بهاء الدين أبو الحسن علي الساعاتي الخراساني الذي قال في قصيدة له:

وما رفعت أعلامُك الصفُر ساعة ::: إلى أن غدت أكبادها السود ترجفُ
كبا من أعاليه صليبٌ وبيعةٌ ::: وساد به دين حنيف ومصحف
أتسكن أوطان النبيين عصبةٌ ::: تمين لدى أيمانها حين تحلف
نصحتكمُ – والنصح في الدين واجب ::: ذروا بيت يعقوب فقد جاء يوسف[7]

وقال "العلم الشاتاني" الذي مدحه بقصيدته الرائية التي مطلعها:

---

(1) مفرج الكروب (373/2 - 374).
(2) الجيش الأيوبي ص 168 رنك أي لون بالفارسية.
(3) الجيش الأيوبي في عهد صلاح الدين ص 168.
(4) صبح الأعشى (8/4) الجيش الأيوبي ص 168.
(5) الجيش الأيوبي في عهد صلاح الدين ص 168.
(6) الفتح القسي ص 103 الجيش الأيوبي ص 169.
(7) مفرج الكروب (83/2، 84) الجيش الأيوبي ص 169.

أرى النصر مقروناً برايتك الصفرا ::: فسر واملك الدنيا فأنت بها أحرى[1]

وكانت الراية رمز السيادة، فكانت ترفع في الأماكن كالحصون والسفن والمؤسسات الحربية الرئيسية، وحين يهزم أحد الطرفين، فإن أول ما كان يفعله المنتصر هو نزع راية المنهزم وإنزالها ورفع رايته مكانها، كما فعل المسلمون في الحصون التي فتحوها والتي كانت بيد الصليبيين [2] وأما الراية الصليبية فيصفها ابن شداد الذي رآها محملة على عربة ويقول: وعلم العدو مرتفع على عجلة هو مغروس فيها، وهي تسحب بالبغال، وهم يذبون عن العلم وهو عال جداً كالمنارة خرقته بياض، ملمع بحمرة على شكل الصلبان[3]. أي أن العلم الصليبي كان يشبه علم منظمة الصليب الأحمر الدولية الآن[4].

ثامناً: البريد والاستخبارات:

تنظيم أمور البريد:

كان تنظيم أمور البريد يجري بواسطة ديوان خصص لهذا الغرض، سمي بديوان البريد، وضع تحت إشراف بعض الموظفين، وكلت إليهم إدارة شؤون هذه المؤسسة [5] وكانت مؤسسة البريد والاستخبارات الأيوبية قد اشتهرت بالتفوق الدائم على ما كان عند الصليبيين، ففي وقعة الرملة التي حدثت سنة 573هـ/1177م بجنوبي فلسطين والتي انتهت بهزيمة الجيش الأيوبي، أثبتت أحداثها اللاحقة أن صلاح الدين يملك بريداً فعالاً، استطاع بسرعة تحركه أن يقضي على الشائعات التي انتشرت في مصر، والتي أفادت بمقتل صلاح الدين، وقضت سرعة هذا البريد على طموح الرجال الذين مدّوا أعناقهم للانقضاض على الحكم الأيوبي في مصر وكان ذلك حين أرسل صلاح الدين من الحدود المصرية رسله على الهجن إلى القاهرة ليؤكدوا لكل من سّولت له نفسه التمرد على حكمه، أنه ما زال على قيد الحياة، وحمل الحمام الزاجل بطائف البشري بعودته إلى القاهرة [6]، وفي سنة 578هـ/1182م، وحين كان صلاح الدين في مصر، قام بغارة على الكرك، وضرب حصاراً عليها لمدة عشرة أيام، ولما رأى قلة أزواد جيشه أمر

(1) وفيات الأعيان (211/7) الجيش الأيوبي ص 170.
(2) الجيش الأيوبي ص 170.
(3) المصدر نفسه ص 170 مفرج الكروب (343/2).
(4) الجيش الأيوبي ص 170.
(5) المصدر نفسه ص 171.
(6) كتاب الروضتين نقلاً عن الجيش الأيوبي ص 175.

بالرحيل، والعودة إلى مصر، ويقول المؤرخ الأيوبي محمد بن تقي الدين عمر الذي كان مع الركب السلطاني: بينما نحن سائرون إذ أتاه نجابون يبشرونه بنصرة عمَّي عز الدين فرخشاه في غزوة دبورية [1].

وكانت مخابرات صلاح الدين من الدقة والسرعة حتى أن أخبار العدو كانت تتواصل إليه ساعة فساعة إلى الصبح[2]، لاسيما خلال حصار عكا. وكانت استخباراته تضم بعضاً من الصليبيين الذين استأمنهم السلطان في مناسبات مختلفة، وتكمن أهمية هؤلاء أنهم كانوا يعرفونه لغة العدو، ولا يشك بهم أنهم رجال صلاح الدين، بسبب من سحنتهم ومظهرهم الخارجي، فكانوا يزودون الجيش الأيوبي بأخبار العدو التي يصعب الحصول عليها عن طريق رجال استخباراته المسلمين، فذات مرة أخبروا صلاح الدين ما ينوي العدو القيام به: من كبس العسكر الإسلامي ليلاً [3] وأخبروه عن المنجنيق الصليبي الهائل الذي أنفقوا عليه ألفاً وخمسمائة ديناراً والذي أعدوه للهجوم على عكا [4]، وكذلك زودوا صلاح الدين بأخبار الحملة الألمانية وقد استعمل في البريد في حصار عكا كافة السبل للاتصال بالمحاربين المحاصرين، للاطلاع على أوضاعهم الصعبة وكذلك لإرسال المال اللازم إليهم، فكان يتصل بهم بواسطة الحمام الطائر والسياحين.

ولعل من أشهر قصص البطولة في البريد الأيوبي قصة العوام عيسى، فقد اعتاد هذا الرجل الدخول إلى عكا، رغم الحصار البحري، ومعه توجيهات السلطان في كتب يشدها على وسطه مع مبلغ من المال، ولدى وصوله إلى عكا كانوا يطلقون طائراً لإعلام السلطان بسلامة وصوله إلى المدينة، وذات ليلة نزل إلى البحر وشد على وسطه ثلاثة أكياس فيها ألف دينار مع كتب للعسكر، إلا أنه لم يستطع الوصول، فغرق في ساحل عكا [5]، وعرفوا أن مكروهاً حدث له، حال دون إطلاق الطائر، وبعد أيام عثروا على جثته وعلى وسطه قطع الذهب وشمع الكتب، ويعلق ابن شداد على ذلك بقوله: فما رؤي من أدى الأمانة في حياته، وقد أداها بعد وفاته إلا هذا الرجل[6].

---

(1) الجيش الأيوبي ص 175.
(2) المصدر نفسه ص 176.
(3) المصدر نفسه ص 176.
(4) النوادر ص 134 الجيش الأيوبي ص 176.
(5) الجيش الأيوبي ص 176.
(6) الجيش الأيوبي ص 178.

أ- اليزك "فرق الاستكشاف":

لفظ اليزك فارسي، معناه "طلائع الجيش" واليزك هم جماعة الاستكشاف التي ترسل إلى جبهة العدو قبل توجه الجيش نحوه والمهمة التي يقم بها محاربو اليزك كانت جزءاً من نظام الاستخبارات، وإيصال المعلومات العسكرية الآتية إلى قيادة الجيش بالسرعة الممكنة، إذن فبوسعنا أن نقول إن اليزك عبارة عن الفعالية البريدية اليومية التي يقوم بها أفراد مختصون يكونون تحت الطلب، ليذهبوا ويتعرفوا عن كثب على ما يفعله العدو أو ينوي القيام به، وكان أفراد اليزك يختارون من بين أهل النصح والنجدة في الحرب للقيام بهذا الواجب، وكان هؤلاء يتحاشون الاشتباك بالعدو عند الاستطلاع، لأن الهدف من واجبهم هو تقدير قوة العدو وكشف مواطن الضعف فيه، لذلك فإنهم كانوا لا يلبسون الدروع أو التروس وغيرها من الأثقال التي تعيق حركتهم، ويختارون الجياد الهادئة السريعة الجيدة الحوافر والظهر، التي لا تتهيج بسهولة [1].

والواقع أن المؤرخين المعاصرين - وخاصة ابن شداد ثم العماد الأصفهاني يذكرون لليزك في سياق رواياتهم، مهمات كثيرة كان يقوم بها، وصار إرسال الأخبار إحدى تلك المهمات [2]. ولا أدل على أهمية وخطورة اليزك في عهد صلاح الدين حين وضع على قيادته شخصيات عسكرية كبيرة أمثال الملك العادل أخي السلطان [3] وابنه الأكبر الملك الأفضل وكبار أمرائه مثل بدر الدين دلدرم اليازوقي وعز الدين بن المقدم وعز الدين جورديك، وعلم الدين سليمان بن جندر وغيرهم وكان هؤلاء الأمراء يقودون اليزك بالتناوب، فكل منهم له نوبته، ومن المهمات التي أوكلت إلى اليزك تفقد أحوال المدن لاسيما بيت المقدس حين هددها الصليبيون بإعادة احتلالها ثانية بعد تحريرها في سنة 583هـ/1187م، فما كان من صلاح الدين إلا أن بعث أخاه الملك العادل على رأس يزك للاطلاع على قدرة هذه المدينة الدفاعية، فسار العادل في ذلك لهذا الغرض في رمضان 587هـ/1191م [4]، كذا ما فعله حين أرسل الأمير عز الدين جورديك، وجمال الدين فرج وغيرهما بالمسير حتى يكونوا قريبين "من يافا " في صورة يزك يستعرفون كم فيها من الخيالة والرجالة بالجواسيس ثم يعرفونه ذلك، فساروا [5].

---

(1) المصدر نفسه ص 178.
(2) الكامل في التاريخ نقلاً عن الجيش الأيوبي ص 178.
(3) النوادر ص 192، الجيش الأيوبي ص 178.
(4) الجيش الأيوبي ص 179.
(5) كتاب الروضتين نقلاً عن الجيش الأيوبي ص 179.

وحدث أن قام من كان في اليزك بمهمة الكمين، كما حدث في طريق يافا، وأوكلت المهمة إلى بدر الدين دلدرم، فكمن حول الطريق كميناً فيه جماعة جيدة، فمّر بهم جمع من خيالة العدو يحمون قافلة تحمل ميرة [1]. وجرى بين الفريقين قتال كانت الدائرة فيه على العدو، وقتل ثلاثون نفراً وأسر جماعة [2]، وصار اليزك يقاتل الصليبيين في مناسبات عديدة، وكاد اليزك في إحدى مصادماته أن يلقي القبض على الملك ريتشارد قلب الأسد بعد أن أصابته طعنة، وحال دون اعتقاله أحد المقاتلين الصليبيين، ففداه بنفسه وشغل طاعته بما عليه من حسن لبسه، فاشتغل به وأسره، وأفلت اللعين وأخفي أثره، وقتل وأسر من خيالته جماعة، وانهزموا من تلك الكرة الخاسرة وقلوبهم مرتاعة [3]. وكذلك قام اليزك بحماية الجيش الأيوبي من هجوم مباغث قد يقوم به الصليبيون، كما حصل عند أنطاكية [4].

إن تلك المسؤوليات المتعددة الجوانب التي أنيط تنفيذها إلى اليزك، لتدل على مكانة اليزك في الجيش الأيوبي. وهذا يعني أن هذا التنظيم العسكري كان يضم في صفوفه خيرة جنود الجيش الأيوبي وأشجعهم، وكان حجم اليزك يتوقف على المهمة العسكرية التي يقوم بها، ولهذا وكما هو متوقع - فإنه كان يحوي عدداً كبيراً من الفرسان، وقد يصل إلى ألف فارس أحياناً، كاليزك الذي عينه صلاح الدين للمرابطة على عكا، حين قرر هو أن يتنقل بقواته إلى جبل الخروبة [5].

وهكذا نرى أن اليزك قد تطور بتطور مهماته في خضم المواجهة الدامية المستمرة مع المحتلين، وتطور من فرقة خاصة باستطلاع أخبار العدو أي كجزء من أعمال البريد والتجسس، إلى تنظيم حربي نشط له أهدافه في الدفاع عن قواعد الجيش الأيوبي أو المدن الإسلامية، أو الهجوم المباغت على معسكرات العدو، وكذلك في وضع الكمائن [6].

ب- حمام البريد:

من أبرز سبل الاتصال البريدي في العهد الأيوبي استعمال الحمام الزاجل، أو ما

---

(1) الجيش الأيوبي ص 179.
(2) النوادر ص 212.
(3) الفتح القسي ص 552.
(4) النوادر ص 93 الجيش الأيوبي ص 179.
(5) الجيش الأيوبي ص 180.
(6) المصدر نفسه ص 180.

يسمى بالحمام الهوادي لقدرته العجيبة على الاهتداء إلى عشه رغم ابتعاده عنه مسافات شاسعة[1]، وقد وصف القاضي الفاضل هذا الطير بأوصاف لطيفة وقال إنه "ملائكة الملوك" يشير إلى نزوله على الملك من جو الهواء نزول الملائكة على الأنبياء عليهم السلام من السماء، مع فرط ما فيه من الأمانة، لا يتوهم من جهتها خيانة [2].

إن هذا النوع من الحمام إضافة إلى اهتدائه إلى وكره، اشتهر بسرعة طيرانه [3]، وربما اصطيد وغاب عن موطنه عشر سنين فأكثر، ثم هو على ثبات عقله وقوة حفظه ونزوعه إلى وطنه، حتى يجد فرصة ليطير إليه[4]. ولهذا بلغت أثمان الحمامة مبالغ مرتفعة جداً، وصل إلى سبعمائة دينار، وأحياناً إلى ألف دينار، وبلغ [5] ثمن البيضة الواحدة من هذا النوع الفاخر عشرين ديناراً [6] وكان للحمام البريدي مطارات منتظمة هي أوكارها وقد عين عليها براجون أو حراس برعوا في الاعتناء بشؤونه في تدريبه وإطعامه وراحته، وإطلاقه واستقباله ولكن جرت العادة أن الطائر إذا هبط بالبطاقة لا يقطعها البراج بيده، بل يأخذه إلى الخليفة أو السلطان، خشية أن يكون في البطاقة سر ينبغي عدم اطلاع أحد عليه، حتى ولو كان الوقت غير مناسب كأن يكون السلطان يتناول طعامه أو نائماً، فيترك طعامه أو يوقظه من نومه، حتى لا يفوت على نفسه ورعيته الأمور الهامة العاجلة، فيفك الرسالة بنفسه [7]، أو يقوم رئيس الحرس بهذه المهمة[8].

لقد اتخذ نور الدين محمود الحمام منذ توليه حكم حلب والشام على غرار والده عماد الدين زنكي، إلا أن ما فعله في سنة 567هـ هو أنه نظم شؤون الحمام على أسس جديدة وشدد على الاهتمام بأمره، إذن فكيفية رعاية الحمام وتنظيم مهابطه في أنحاء الدولة النورية، ووريثتها الدولة الأيوبية، وتعيين البراجين، وتقاليد كتابه الرقع وكيفية ربط البطاقة واستقبال الحمام، وفك وقراءة الرسالة، كل هذه الأمور كانت موجودة حين استلم صلاح الدين مقاليد الأمور وكل ما فعله هو أنه زاد من ربط مصر بالشام بواسطة

(1) المصدر نفسه ص 180.
(2) كتاب الروضتين نقلاً عن الجيش الأيوبي ص 180.
(3) الجيش الأيوبي ص181.
(4) دائرة المعارف (168/7)، الجيش الأيوبي ص181.
(5) صبح الأعشى (390/14).
(6) المصدر نفسه.
(7) حسن المحاضرة (166/2)، الجيش الأيوبي ص 181.
(8) الجيش الأيوبي ص 181.

البريد الجوي، حتى صارت هناك شبكة من المهابط "المطارات" في مصر والشام تمتد من أقصى جنوبي مصر من أسوان إلى القاهرة فالسويس وإلى بلبيس كل على حدة، ثم من بلبيس إلى الشام، ومن بلبيس أيضاً إلى الصالحية وإلى قطيا [1]، ومن قطايا إلى الواردة في الطريق إلى غزة، ثم غزة، أي أن بلبيس الواقعة شرقي القاهرة كانت مركز المهابط في مصر، ومثلها غزة في جنوبي فلسطين على الساحل حيث يبدأ منها خط إلى الخليل، وإلى اللد، ومنها إلى قاقون [2]، ثم جنين فصفد فبيسان فإربد فطفس، ومنها الضمين [3]، فدمشق، ومن كل واحد من هذه المراكز إلى ما جاورها من المدن، فمن بيسان إلى أذرعات [4]، ومن دمشق يسرح الحمام إلى بعلبك وكذلك إلى قارة [5]، ومن قارة أيضاً إلى حمص ومنها إلى حماة فالمعرة فحلب فالبيرة، وهكذا بقية مدن الجزيرة الشامية [6].

إن هذه المحطات الكثيرة كانت تضم ولا شك عدداً كبيراً من الحمام، وقد قدر في وقت لاحق، عدد الحمام الذي كان موجوداً في برج قلعة القاهرة وحده بحوالي ألفي طائر[7]. وصارت مهنة تربية الحمام مهنة مربحة، نظراً للإقبال الشديد عليه لاسيما أثناء حصار الصليبيين لعكا. يقول العماد الكاتب: صرنا نحبو صاحب الطيور بالأطراء، ونخصه بالمدح والثناء، ونأمره بالاستكثار، ونطلبها منه مع الليل والنهار، حتى قل وجودها عنده لكثرة الإرسال [8].

وقد استفاد الجيش الأيوبي من الجهاز البريدى النوري واستعمله صلاح الدين ونوابه في حالات الشدة، فالحمام الزاجل أرسلت البشائر من فلسطين إلى مصر بنجاة السلطان في موقعه الرملة التي هزم فيها الجيش الأيوبي. ويقول العماد: وسيَّرنا بها البشائر، وأنهضنا ببطاقاتها الطائر لإخراس ألسنة الأراجيف، وإبدال التأمين من التخويف [9]، وكان الجيش الأيوبي يصحب معه حمام الجهة أو الجهات التي ينوي

---

(1) قطيا: قرية في طريق مصر في وسط الرمل قرب الفرما.
(2) قاقون: حصين بفلسطين قرب الرملة على مسافة نصف يوم من قيسارية.
(3) الضمين: قرية من أعمال دمشق في أوائل حوران.
(4) أذرعات: بلد في أطراف الشام يجاور أرض البلقان وعمان.
(5) قارة: قرية كبيرة على قارعة الطريق وهي المنزل الأول من حمص.
(6) صبح الأعشى (493/14).
(7) تاريخ التمدن الإسلامية (233/1) الحياة العسكرية ص 217.
(8) الفتح القسي ص 360.
(9) سنا برق الشامي (260/1).

الاتصال بها، أو حين كان يبغي طلب المعونة منها، كما حدث في سنة 574هـ/1178م حين اجتمع الصليبيون، وساروا نحو دمشق مع ملكهم فأغاروا على أعمالها ونهبوها وأسروا وقتلوا وسبوا، فأرسل صلاح الدين ابن أخيه عز الدين فرخشاه في جمع من العساكر إليهم وأمر أنه إذا قاربهم يرسل إليه بخبره على جناح طائر يسير إليه، فسار فرخشاه في عسكره يطلبهم [1].

ولعل ما يؤكد على قوة تنظيم البريد الجوي في هذا العهد، تواصل الحمام على صلاح الدين من مختلف أنحاء البلدان أثناء مرابطته الطويلة على عكا، فمما يذكره ابن شداد أنه أثناء رمضان 586هـ/1190م أرسل حمام من حلب إلى حماة ومن حماة إلى عكا وتحت جناحه خبر يعلن فيه نواب الملك الظاهر صاحب حلب عن قيام قوات العدو من جنود إمارة أنطاكية الصليبية من حلب، بشن الغارات على القرى التابعة لحلب، مستغلين ضعف قواتها بسبب ذهاب جندها بقيادة الملك الظاهر إلى عكا، إلا أن القوات الباقية في حلب استطاعت من وضع الكمناء الذين استطاعوا دحر المعتدين الذين، لم يشعروا إلا والسيف قد وقع فيهم فقتل من عسكرهم خمسة وسبعون نفراً وأسر منهم خلق عظيم [2] وقد تفنن المسلمون في إخفاء أسرارهم، لكي لا يطلع عليها العدو، لاسيما أثناء حصار عكا، حتى أنهم استعملوا رموزاً خاصة، أو تسمى بالشفرات، تدل على أمور متفق عليها مقدماً، فقد ذكر العماد أن رجل البريد كانوا يحملون كتبا وطيوراً ويعودون بكتب وطيور، ونكتب إليهم، ويكتبون إلينا على أجنحة الحمام بالترجمة المصطلح عليها سر الأمور، ويودع المكتوب والمكتوم ما نطلعهم عليه من الخفي المستور [3].

ج- الكمائن:

لعل من أكثر فترات التاريخ الإسلامي نشاطاً للكمائن هي فترة الحروب الصليبية لاسيما أيام صلاح الدين نظراً لقرب مواقع الاحتكاك العدائي واستمراره بين القوى الإسلامية والمرتكزات الصليبية التي أقاموها على الجهات الساحلية من بلاد الشام، أو القريبة منها وتعني الكمائن إرسال جريدة [4] أو سرية من المحاربين الفرسان إلى جهات العدو ومباغتته والإيقاع به في مناوشات محدودة لا تصل إلى حد القتال الواسع النطاق. أي أن العملية كانت تبدأ في السر، ولهذا كان ينبغي أن تتوفر في رجال الكمين جملة من

(1) الكامل في التاريخ نقلاً عن الجيش الأيوبي ص 187.
(2) الجيش الأيوبي في عهد صلاح الدين ص 188.
(3) المصدر نفسه ص 188.
(4) الجريدة: تعني أقل العسكر وهي قطعة جردت من سائرها.

المواصفات لكي يستطيعوا أن يقوموا بمهمتهم بالصورة المطلوبة [1].

ويبدو أن صلاح الدين رأى بعد سنة 585هـ/1189م أن من الأفضل سلوك طريقة إرسال الكمائن، والتحرش بقوى العدو وعدم فسح المجال له ليخلد إلى الراحة، ويجمع قواته حول عكا، فسار على الجيش الأيوبي أن يدافع عن عكا من جهة ويفرض الحصار على الصليبيين الذين يحاصرون عكا من جهة أخرى، ويرسل الكمائن للتحرش بالجماعات الصليبية هنا وهناك من جهة ثالثة [2].

ونجد أن الظروف التي مر بها الجيش الأيوبي في تلك الفترة وصلاحية أرض الشام ولاسيما أرض فلسطين - لوجود الأحراش الكثيفة والجبال التي تأوي رجال الكمين المقاتلين، قد حتمت على الجيش تنظيم مثل هذه العمليات العسكرية المحدودة الأثر والتي كانت الغاية منها إحراج العدو وجعله لا يشعر بالأمان وهذا الأسلوب في القتال شبيه بما نسميه بحرب الأنصار، أو المغاوير [3].

تاسعاً: إدارة شؤون القتال والسلم والأسرى:

1- مجلس حرب جيش صلاح الدين:

كان من الطبيعي أن يكون لصلاح الدين مساعدون يعينونه على توجيه سياسة الحرب ووضع الخطط العسكرية وإدارة شؤون الدولة، وكان هؤلاء يشكلون مجلساً شبيهاً بما يطلق عليه أركان الجيش ويتكون من صلاح الدين، وكان يرأس الاجتماعات عادة، وعضوية إخوته، لاسيما الملك العادل، وأولاده الكبار خاصة الملك الأفضل علي والملك الظاهر غازي، وأولاد أخيه مثل تقي الدين عمر وخاله شهاب الدين محمود الحارمي، وكبار الأمراء والقادة القدامى الجدد ومستشاره الحكيم القاضي الفاضل، وقاضي العسكر بهاء الدين بن شداد المؤرخ، وبهاء الدين قراقوش، وسيف الدين المشطوب الهكاري، وقادة أخرين مثل أبو الهيجاء الهذباني، وعلم الدين سليمان بن جندر، وأمير الأسطول المصري حسام الدين لؤلؤ، وأصحاب المدن والقلاع المعروفين من أمثال مظفر الدين كوكبري وشمس الدين بن المقدم وعز الدين جورديك والفقيه ضياء الدين عيسى الهكاري، وكان لكل من هؤلاء حق إبداء الرأي في صراحة تامة، ما داموا

(1) الجيش الأيوبي في عهد صلاح الدين ص 189.
(2) الجيش الأيوبي في عهد صلاح الدين ص 191.
(3) المصدر نفسه ص 193.

يتصرفون وينطلقون من مبدأ خدمة دولة صلاح الدين وجيشه [1]، وكان المجلس يجتمع كلما رأى صلاح الدين ضرورة في ذلك [2]، وسوف نلاحظ بإذن الله من خلال الأحداث في هذا الكتاب أن صلاح الدين شاور أصحابه في كل المناسبات والأحداث الخطيرة ووافق على رأيهم عن رضا حيناً، وعن كره حيناً آخر، حفاظاً على مصلحة المسلمين وإيثاراً لرضائهم وحرصاً منه على احترام رأي أمرائه [3].

2- خطط وأساليب القتال:

كان الهدف الأسمى للجيش الأيوبي في قتاله هو طرد المحتلين الصليبيين الذين استقروا في الساحل الشامي الممتد من أقصى الشمال من أنطاكية إلى أقصى الجنوب في عسقلان وكذلك في بعض الأجزاء الداخلية مثل بيت المقدس والكرك والرها وطبرية وغيرها [4]، فالهدف الاستراتيجي في القتال الأيوبي هو استعادة الأراضي التي يحتلها الصليبيون منذ أواخر القرن الخامس الهجري - الحادي عشر الميلادي - ومن أجل تحقيق هذا الهدف سلكت الجيوش الإسلامية مختلف السبل وشتى الأساليب سواء عن طريق المجابهة المباشرة مع العدو، أو عن طريق إضعافه اقتصادياً ومعنوياً وحصره في نقاط الارتكاز التي حضها فالمسلمون - لاسيما في عصر صلاح الدين - اتبعوا مختلف التكتيكات للإيقاع بالصليبيين[5] ولم تكن الخطط العسكرية في الجيش الأيوبي بصنعها صلاح الدين وحده بل كان يعينه مجلسه الاستشاري، على الرغم من أن قيادة الجيش المركزية ظلت بيد صلاح الدين والنجاح يكون في الغالب مضموناً، إذا حافظ القائد على الاتصال الدائم بالأعداء، وقد تحل الهزائم به، إذا فقد ذلك الاتصال [6]. وكان اليزك - الفرقة الاستطلاعية - يقوم بدور أساسي في هذا الصدد، فكان واسطة اتصال دائم بين قيادة الجيش وقوى العدو ومن الأساليب التي استعمالها الجيش الأيوبي نجد أنفسنا أمام جملة من الأعمال والإجراءات التي يمكن إدراجها تحت اسم الأعمال التكتيكية ومن هذا الأعمال:

3- قطع الأشجار:

---

(1) الجيش الأيوبي في عهد صلاح الدين ص 197.
(2) المصدر نفسه ص 203.
(3) المصدر نفسه ص 205.
(4) المصدر نفسه ص 206.
(5) المصدر نفسه ص 206.
(6) الجيش الأيوبي ص 208.

ومن الأعمال التي قصد منها إضعاف العدو أنه أوعز إلى جنده بقطع كروم ضياع صفد في غور الأردن في موقعة بيت الأحزان التي حدثت سنة 575هـ/1179م[1] وأمر بحصد غلاتهم وقصد من هذا تحطيم اقتصاد العدو وجعله لا يستفيد من الكروم وأخشابها، ومن الحبوب التي حصدها الجند [2]، وقد تكرر هذا العمل في مناسبات عديدة، فيذكر المؤرخ محمد بن تقي الدين عمر الأيوبي أن السلطان سار بمن انتخب من عساكره وتوجه بهم إلى الكرك في مطلع سنة 578هـ/1182م ووصل إليها بعد أيام، فوجد بها جمعاً عظيما من الفرنج، فنزلنا قريباً منهم، فأذللناهم وضايقناهم حتى لاذوا بالجدار، فاستولينا عليهم فقطعنا أشجارهم ورعينا زروعهم [3] وكذلك فعلوا حين تهيأوا لموقعة حطين الحاسمة حين ساروا إلى حصن الكرك وأخافوا أهله وأخذوا ما كان حوله ورعوا زرعهم وقطعوا أشجارهم وكرومهم، ثم ساروا إلى حصن الشوبك وفعلوا به مثل ذلك [4].

4- قطع المياه:

كان لتكتيك قطع الماء أثره العميق في إضعاف العدو وهزيمته، فالمعروف أن سيطرة الجيش الأيوبي على منابع الماء يوم حطين كان أحد أسباب هزيمة العدو، كما هو معلوم، حين حجز بينهم وبين الماء [5]، حتى قتلهم العطش [6]، ولجأ الجيش الأيوبي إلى إفساد مياه بعض ينابيع القدس سنة 587هـ/1191م للحيلولة دون وقوع هذه المدينة بأيدي الصليبيين بعد هزيمة المسلمين المعروفة في عكا [7]. وكان إفساد الماء يتم عن طريق إلقاء الزرنيخ أو طرح الجيف فيه [8].

5- أسلوب الحرب الخاطفة:

ومن الخطط التي اتبعها، تطبيقه لأسلوب الحرب الخاطفة، ومباغتة العدو، والانتصار عليه قبل أن يستطيع تجميع قواه، وهذه الخطة تظهر معالمها بوضوح أكثر

---

(1) سنا البرق الشامي (331/1)، الجيش الأيوبي ص 208.
(2) مفرج الكروب (80/2).
(3) الجيش الأيوبي ص 208.
(4) كتاب الروضتين نقلاً عن الجيش الأيوبي ص 208.
(5) كتاب الروضتين نقلاص عن الجيش الأيوبي ص 209.
(6) الجيش الأيوبي ص 209.
(7) الجيش الأيوبي ص 210.
(8) مفرج الكروب نقلاً عن الجيش الأيوبي ص 209.

في سنتي 583هـ - 584هـ/1187 - 1188م حين لم يكتف بالانتصار الحاسم في حطين، بل إنه اتبع الانتصار بانتصارات لاحقة سريعة بحيث يمنع الصليبيين من التجمع في مكان واحد والاشتباك معه في موقعة مكشوفة أخرى، فأثر فوزه في حطين هجم الجيش الأيوبي على التوالي على عكا وصفورية والناصرة وقيسارية ونابلس والداروم وفتحها جميعاً، وحين استعصت عليه مدينة صور سبب استحكاماتها، اضطر إلى تركها، واستأنف فتوحه في البقاع الأخرى وتوجها بفتح بيت المقدس والمدن الساحلية والداخلية ففتح هونين [1] وجبلة واللاذقية وصهيون، ثم توجه شمالاً فاستولى حصون بكاس والشغر وبرزية ودربساك وبغراس المحيطة بإمارة أنطاكية الصليبية ثم اتجه قسم من جيشه مرة أخرى إلى الجنوب، ففتح في أواخر سنة 584هـ/1188م حصن الكرك المتين التي سميت بصخرة الصحراء، وأخيراً فتح صفهد وكوكب قبل أن يعود إلى دمشق لقدوم فصل الشتاء، ولأخذ قسط من الراحة [2].

6- خطة القتال بالتناوب:

أعاد صلاح الدين الكرة على صور وعند أسوارها طبق خطة نفذها بنجاح في فتح بعض القلاع مثل برزية، وهي خطة القتال بالتناوب [3] وذلك بأن قسم عسكره إلى ثلاثة أقسام، يقاتل كل قسم منها فترة محددة، ثم يستريح ليواصل القتال قسم ثان ثم ثالث، وقد قصد باتباعه لهذا الأسلوب، إنهاك الصليبيين وعدم فسح المجال لهم ليرتاحوا، إلا أن الأسلوب اصطدم بمتانة أسوار صور، إضافة إلى وضع المدينة الطوبوغرافي [4].

7- خطة شق صفوف الصليبيين:

اتبع صلاح الدين خطة شق صفوف الصليبيين، والإيقاع بينهم، وكسب ود بعض قادتهم، في محاولة منه إضعافهم، فيذكر ابن شداد أن السلطان جلس ذات مرة في شوال 578هـ/1191م واستحضر صاحب صيدا لسماع رسالته وكلامه، فحضر وحضر معه جماعة وصلوا معه، وكان المؤرخ المذكور حاضراً، وأكرم السلطان ضيوفه الصليبيين إكراماً عظيماً وحادثهم، وقدم بين أيديهم ما جرت العادة، ولما رفع الطعام اختلى بهم ثم تقرر أن يصالح السلطان المركيز مونتفرات صاحب صور، الذي انضم إليه جماعة من أكابر الفرنجة، منهم صاحب صيدا، واشترط صلاح الدين على المركيز المنشق أن يظهر

(1) بلدة حصينة تقع إلى الشرق من صور - معجم البلدان.
(2) الجيش الأيوبي ص 210.
(3) الكامل في التاريخ نقلاً عن الجيش الأيوبي ص 210.
(4) الجيش الأيوبي ص 210.

عداوته للفرنج الذين انشق عنهم، وكان سبب ذلك شدة خوفه منهم إضافة إلى خلافه معهم بسبب الزواج، وبذل له السلطان الموافقة على شروط قصد بها الإيقاع بينهم، على حد قول ابن شداد [1].

8- توطيد علاقته الاقتصادية التجارية مع المدن الإيطالية:

ومن الإجراءات الحكيمة التي لجأ إليها صلاح الدين بصدد إضعاف العدو اقتصادياً، قيامه بتوطيد علاقته الاقتصادية التجارية مع دويلات المدن الإيطالية مثل (بيزا وجنوا والبندقية) فمنذ أن تولى الحكم في مصر صار يبذل الجهود لجذب تجارة هذه المدن إلى مصر، وراح يعقد الاتفاقات مع هذه الدويلات لتبادل السفراء معها، وقد انتفع صلاح الدين من هذه الاتفاقيات من ناحيتين:

- ازدياد موارد دولته بسبب النشاط التجاري، فحصل على حاجته من الحديد والخشب والشمع.

- إضعاف تجارة الصليبيين، لاسيما إذا عرفنا أن صلاح الدين كان يسيطر على البحر الأحمر، ولا شك أن هذه التجارة أدت إلى الاهتمام بإعادة بناء الأسطول الإسلامي الأيوبي [2] ففي خطاب وجهه صلاح الدين إلى الخليفة العباسي سنة 571هـ/1175م قال: ومن هؤلاء الجيوش البنادقة والبياشنة والجنويون، كل هؤلاء تارة يكونون غزاة لا تطاق ضراوة ضرهم، ولا تطفأ شرارة شرهم، وتارة يكونون سفّار يحتكمون على الإسلام في الأموال المجلوبة، وتقصر عنهم يد الأحكام المرهونة، وما منهم إلا من هو الآن يجلب إلى بلدنا آلة قتاله وجهاده، ويتقرب إلينا بإهداء طرائف أعماله وتلاده، وكلهم قد قررت معهم المواصلة، وانتظمت معهم المسالمة، على ما يزيد ويكرهون، وعلى ما نؤثر وهم لا يؤثرون[3]. وهذه العلاقات بين مصر والمدن الإيطالية لم تكن بالأمر الجديد، بل هي استمراراً لما كانت عليها في العهد الفاطمي [4]، لكن صلاح الدين نجح في المحافظة عليها وتطويرها.

تخريب المدن:

ومما يذكر بصدد خطط صلاح الدين الحربية، إنه لجأ في سني صراعه الأخيرة مع

---

(1) المصدر نفسه 211، الفتح القسي ص 560.
(2) المصدر نفسه ص 211.
(3) الجيش الأيوبي ص 212.
(4) المصدر نفسه ص 212.

الصليبيين الذين كان يقودهم ريتشارد قلب الأسد، إلى تخريب مدينة عسقلان التي كانت المفتاح الجنوبي لبيت المقدس وطريق القوافل الذاهبة إلى مصر، وكان المسلمون يطلقون عليها عروس الشام لحسنها [1]، ولجأ السلطان إلى هذا الإجراء حين عجز جيشه عن الدفاع عنها [2] وخشي أن يستولي عليها الصليبيون وهي عامرة - كما حصل لعكا - فيقطعوا بها طريق مصر [3].

ورأى صلاح الدين ادخار قوة جيشه الدفاعية لحفظ بيت المقدس، واستشار صلاح الدين أخاه الملك العادل وأكابر أمرائه في ذلك فأقروه على رأيه، وقال علم الدين سليمان بن جندر، أحد كبار مستشاريه: هذه يافا قد نزل العدو بها، وهي مدينة تقع في الوسط بين عسقلان والقدس ولا سبيل إلى حفظ المدينتين معا، فأعمد إلى إشرافها وحصنها وهكذا تقرر تخريب عسقلان [4] والواقع أن هذه المدينة لم تكن الوحيدة التي تعرضت لهذا المصير بل تقرر تخريب حصن الرملة كذلك [5]، وحصن النطرون الذي كان من أملاك الداوية [6]، وجزءاً من سور يافا وغزة واللد والداروم الواقعة في أقصى ساحل الشام الجنوبي وقد خربها صلاح الدين حين ملك الساحل في سنة 584هـ، وهذا ما حصل لحصن سرمينية أيضاً، فبعد أن فتحه الملك الظاهري غازي في جمادى الآخرة سنة 584هـ/1188م أخرج أهله منه ثم هدمه وسواه مع الأرض وعفى أثره [7] وخرب حصن يازور بسواحل الرملة من أعمال فلسطين وخرب معه بلدة "بيت جبرين" قبيل عقد الصلح مع ريتشارد [8].

تأمينه للطريق الموصل بين مصر والشام:

ومما يدخل ضمن خطط صلاح الدين الاستراتيجية، تأمينه للطريق الموصل بين مصر والشام والذي تبلغ المسافة بينهما مسيرة حوالي ثلاثين يوماً [9]، وشيد صلاح الدين القلاع والمنازل وأقام الحراسة على طول الطريق بين مصر والشام فأعاد الأمن

(1) الفتح القسي ص 550، الجيش الأيوبي ص 212.
(2) الجيش الأيوبي ص 212.
(3) المصدر نفسه ص 213.
(4) الجيش الأيوبي ص 213.
(5) وفيات الأعيان (199/7) المصدر نفسه ص 213.
(6) شفاء القلوب نقلاً عن الجيش الأيوبي ص 213.
(7) مفرج الكروب (264/2).
(8) الجيش الأيوبي ص 214.
(9) كتاب الروضتين نقلا عن الجيش الأيوبي ص 214.

والسلام إلى سيناء، وقد اعتاد صلاح الدين وقواده أن يسلكوا هذا الطريق في غدواتهم وروحاتهم إلى الشام[1].

تحصين المدن والثغور:

واهتم بتحصين مدينتي مصر والقاهرة وثغور الديار المصرية ومداخلها وأهمها في عهد صلاح الدين، الإسكندرية ودمياط ورشيد وعيذاب وتيس، وأدرك صلاح الدين مدى الخطر الذي قد يلحق بمصر من ناحية الشمال من جانب الصليبيين، وكان ما حصل في دمياط حين حاصرها أموري براً وبحراً سنة 565هـ/1169م جعله يولي هذا الثغر قدراً كبيراً من اهتمامه، فكان حريصاً على تحصينه وكذلك اهتم بتحصين سواحل البحر الأحمر، وأما داخل مصر فأهم التحصينات التي أقامها كانت في مدينة القاهرة، فقد شرع السلطان في عمارة سور القاهرة لأنه كان قد تهدم أكثره وصار طريقاً لا يرد داخلاً ولا خارجاً وولاه لقراقوش الخادم [2].

1- موسم القتال:

كانت الاستعدادات للقتال تبدأ بانتهاء موسم الشتاء وارتفاع درجات الحرارة مع قدوم الربيع، أما ما كان يجري في الشتاء بين الجانبين فلم تكن تتعدى المناوشات القصيرة، ووضع الكمائن وإرسال فرق الاستطلاع لمعرفة أحوال العدو وإذا نظرنا إلى فترات المعارك نلاحظ أنها تقع خلال الثمانية أو التسعة أشهر التي تبدأ مع انتهاء حدة البرد وتنتهي مع قدوم الشتاء[3].

وإذا تابعنا اليوميات الخاصة بتحركات صلاح الدين التي دونها كل من العماد الكاتب وابن شداد وغيرهما من المؤرخين المعاصرين واللاحقين، نرى أن القتال ووصول جيوش الأطراف إلى الميدان يتوقف في فصل الشتاء، ولكن ما أن ينتهي هذا الفصل القارص والموحل - لاسيما في بلاد الشام - حتى يدب النشاط في الجيش، فيبدأ بالاستعداد لمجابهة عدوه، وتصل إلى ميدان القتال قوات الأطراف [4] وأما بعد أن ينتهي موسم القتال فتعود العساكر إلى بلدانها. يقول العماد أنه حين هجم الشتاء العنيف، وانحرف خريف الخريف، واشتعلت رؤوس الجبال شيباً للثلج، وحل الوحل المخيم،

---

(1) الجيش الأيوبي ص 214.
(2) الجيش الأيوبي ص 216.
(3) المصدر نفسه ص 218.
(4) المصدر نفسه ص 219.

طلب الأمراء من صلاح الدين الإذن بالعودة إلى بلادهم للراحة والاستجمام، فسار صاحب سنجار، وتلاه صاحب جزيرة ابن عمر، وبعده ابن صاحب الموصل [1].

ويذكر ابن شداد بهذا الصدد تحت عنوان (عود العساكر من الجهاد) أنه لما هجم الشتاء وهاج البحر وأمن العدو أن يضرب مصافاً، وأن يبالغ في طلب البلد وحصاره من شدة الأمطار وتواترها، أذن السلطان للعساكر الإسلامية في العود إلى بلادها، لتأخذ نصيباً من الراحة، وتجم خيولها إلى وقت العمل [2]. وقد تكررت حوادث قدوم العساكر إلى ساحة المعركة لإنجاد الجيش الصلاحي المركزي، بعد انتهاء فصل الشتاء، ثم العودة إلى أوطانها بمجيء هذا الفصل [3]، وضمن أيام القتال كان صلاح الدين يستبشر بيوم الجمعة نظراً لمكانة هذا اليوم، وقدسيته لدى المسلمين، وهذا لا يعني أنه كان يتوقف عن القتال في أيام الأسبوع الأخرى في انتظار يوم الجمعة، لكنه كان يتفاءل من نتيجة القتال إذا صادف وكان اليوم هو يوم جمعة، ففي وقعة حطين يسير عساكره وسط نهار الجمعة من ربيع الآخر من سنة 583هـ تبركاً بدعاء الخطباء على المنابر، فربما كانت أقرب إلى الإجابة [4]، ودخل جيش صلاح الدين عكا يوم الجمعة [5] وفي فتوح قلاع الساحل الشمالي لبلاد الشام، أي القلاع المحيطة بأنطاكية، اتفقت أن جميعها فتحت في أيام الجمعة، وهي علامة قبول دعاء الخطباء المسلمين وسعادة السلطان حيث يسر له الفتوح في اليوم الذي تضاعف فيه ثواب الحسنات[6]، ولعل مجلس حرب صلاح الدين كان يخطط لجعل القتال يقع في يوم الجمعة، وهذا يعني أن هذا اليوم كان له تأثيره الطيب على نفوس المقاتلين المسلمين واندفاعهم البطولي في القتال [7] ونرى أن النصر والهزيمة لا علاقة لهما بيوم محدد وتأثير يوم الجمعة بالنسبة لجيش صلاح الدين كان نفسياً والانتصارات كانت تحصل حتى في غير أيام الجمعة ثم أن انتصاراته لم تقتصر على هذا اليوم إضافة إلى أنه لم يخلُ من هزائم ألحقت بجيشه [8].

2- معاملة الأسرى:

(1) المصدر نفسه ص 220 مفرج الكروب (246/2).
(2) كتاب الروضتين نقلاً عن الجيش الأيوبي ص 220.
(3) الجيش الأيوبي ص 221.
(4) المصدر نفسه ص 221.
(5) وفيات الأعيان (175/7).
(6) الفتح القسي ص 247 الجيش الأيوبي ص 221.
(7) الجيش الأيوبي ص 221.
(8) المصدر نفسه ص 222.

لم يكن صلاح الدين يميل إلى سفك الدماء والانتقام من الأسرى الصليبيين على الرغم من أنهم جاؤوا في الأساس غزاة محتلين لبلاد المسلمين، فيما يروى عنه في هذا الصدد أنه منع أولاده من قتل الأسرى، لكيلا تنموا في نفوسهم غريزة سفك الدم، فلربما إذا اعتادوا على قتل أسراهم، وهم صغار، فسيفعلون ذلك دون تفريق بين المسلم والكافر [1]، بل إنه حذر ولده الملك الظاهر - وهو ابن العشرين سنة - من إراقة الدم في آخر وصية له أثناء مرضه الأخير [2] وبصورة عامة نجد أن معاملتهم كانت تتابين بين تشغيلهم في أعمال السخرة وحجزهم في دمشق، وعرضهم للبيع أو قتلهم. ولعل من الصواب أن نقول: أن صلاح الدين لم يشذ عن القادة أو الحكام السابقين في طريقة تعامله للأسرى كنور الدين محمود الذي سار صلاح الدين على نهجه في طريقة حكمه وكان يجهز على الأسرى في بعض المناسبات، كما حدث في سنة 552هـ/1157م حين جلب له الأسرى، فأمر بضرب أعناقهم، وكذلك نور الدين محمود يسجنهم في أكثر الأحيان، لاسيما القادة الكبار منهم كما حدث لأرناط "رينودي شاتيون" صاحب أنطاكية ثم "الكرك" الذي حبسه خمس عشرة سنة، ثم أطلق الأمير كمشتكين، أحد أمراء نور الدين، سراحه بعد وفاته نكاية بصلاح الدين وكان القصد من الإبقاء على حياة الأسرى - لاسيما الأمراء منهم - هو الاستفادة منهم في إجراء عملية التبادل مع الأسرى المسلمين. إذ أن المعروف عن نور الدين محمود حرصه الشديد على فكاك أسرى المسلمين، سواء بالتبادل أو بالفداء، ولاسيما الأسرى المغاربة منهم، لأنهم غرباء عن الشام، ولا أهل لهم فيها، فمما يذكره ابن جبير بهذا الصدد أن من جميل صنع الله تعالى لأسرى المغاربة في الشام، أن الملوك والأغنياء كانوا يخرجون مبلغاً من مالهم يخصصونه لافتكاك الأسرى المغاربة [3].

وحرص صلاح الدين على الاقتداء بنور الدين محمود والسير على منواله في هذا، بل إنه ما برح يطلق سراح الأسرى الصليبيين الفقراء دون مقابل، كما حدث لدى فتحه، بيت المقدس، إضافة إلى قيامه بافتكاك الأسرى المسلمين، وقد تحتم ذلك عليه بوصفه المسؤول عن حياة المحاربين، ولأن بتحريرهم من الأسر يطلق قوة إسلامية حبيسة في معسكر العدو، ومن ثم فإن ذلك عمل من أعمال البر والتقوى، وسار على هذا النهج بعض أمرائه، فمما يذكر عن مظفر الدين كركبري صاحب أربيل، صهر صلاح الدين،

(1) كتاب الروضتين نقلاً عن الجيش الأيوبي ص 224.
(2) النوادر ص 238 الجيش الأيوبي ص 224.
(3) رحلة ابن جبير ص 280 الجيش الأيوبي ص 2250.

أنه كان يبعث برسله مرتين في كل سنة إلى بلاد الساحل "الشام" ومعهم المال الكثير لتحرير الأسرى المسلمين من أيدي الصليبيين [1]، حتى أن سبط بن الجوزي يقول: إن أموال إمارته قد استنفذتها الصدقات وقدر هذا المؤرخ عدد أسرى المسلمين الذين حررهم هذا الأمير بنحو ستين ألف أسير، ما بين رجل وامرأة [2].

ومن وقائع حسن معاملة الأسرى ما حصل سنة587هـ/1191م حين أحضروا إليه خمسين وأربعين نفراً صليبياً من بيروت، وكان بينهم شيخ طاعن في السن، لم يبق في فمه ضرس، ولدى إحضاره أمام صلاح الدين طلب من الترجمان أن يسأله عن السبب الذي حمله على القدوم في الشرق وهو في هذا العمر، وغيرها من الأسئلة، فأجاب الصليبي الهرم على أسئلة السلطان، فرق له السلطان، ومنّ عليه وأطلقه وأعاده راكباً على فرس إلى معسكر العدو[3]. في حين كان صلاح الدين ينتقم من بعض الأسرى شر انتقام، لأنهم ارتكبوا جرائم شنيعة لا تغفر إلا بسفك دمهم، بل والتشهير بهم قبل الشروع بقتلهم [4]، كما سيأتي بيانه في محله بإذن الله، ونجد أن صلاح الدين كان يرى أن من الأفضل الإبقاء على حياة الأسرى للاستفادة من طاقتهم في بعض الأعمال، فحين شرع ببناء حصن القاهرة "قلعة صلاح الدين" سخر هؤلاء الأسرى في القيام بالأعمال الشاقة، كنشر الرخام ونحت الصخور العظام، وحفر الخندق المحدق بسور الحصن، وكان خندقاً ينقر بالمعاول نقراً في الصخر عجباً من العجائب ولا سبيل - كما يقول ابن جبير - أن يمتهن في ذلك البنيان سوى العلوج الأسارى من الروم [5]، وذكر مؤرخ مصري متأخر: أن قراقوش كان يستعمل في بناء القلعة والسور خمسين ألف أسير صليبي [6].

3- المعاهدات بين صلاح الدين والصليبيين:

كان أول المعاهدات بين صلاح الدين والصليبيين في مستهل سنة 571هـ/صيف 1175م، أي في بداية استقرار صلاح الدين في بلاد الشام، ولا ريب أن ضغط الظروف السياسية والاقتصادية والعسكرية وغيرها، هو الذي دفعه إلى عقد هذه الهدنة مع الصليبيين أيضاً، حاجته إلى وقت إضافي لتصفية حسابه مع الجماعات الإسلامية

(1) الجيش الأيوبي ص 226.
(2) المصدر نفسه ص 226.
(3) المصدر نفسه ص 227.
(4) المصدر نفسه ص 227.
(5) الجيش الأيوبي ص 237.
(6) الخطط التوفيقية ص 70، علي مبارك.

المناوئة لـه، وكونه القائد الذي ينبغي قيادة الجبهة الإسلامية ضد الصليبيين، إضافة إلى قطع الطريق على الجماعات الإسلامية التي رغبت في التعاون مع الصليبيين على حساب صلاح الدين، لاسيما أتابكة الموصل وحلب [1] وهذه الأسباب جميعاً دفعت السلطان والصليبيين إلى إيقاف القتال وقيام فترة سلم بينهما، وحين تم عقد الهدنة، أمر السلطان العساكر المصرية بالعودة إلى مصر، نظراً لانتفاء الحاجة إلى وجوده في الشام بالإضافة إلى صعوبة الوضع الاقتصادي في الشام - كما قلنا - وكذلك حاجة مصر إلى جندها في موسم الحصاد، فيذكر العماد أن السلطان أذن لعسكر مصر بالانصراف والإقامة في مصر " ريثما يستوعب المغل " [2].

والواقع أن صلاح الدين لم يعقد هذه الهدنة أو غيرها إلا وهو حذر من الصليبيين مخافة أن ينقضوها، كما حدث فعلاً، فكان يتخذ لنفسه الحيطة من الشروط والبنود التي تقيد العدو، وتمنعه من القيام بالعدوان وكذلك لم يكن يلقى السلاح، ويركن إلى السلم مع عدو محتل، بل إنه كان يضع جيشه في حالة استعداد وترقب دائمين، ولا ينقطع عن القيام بمناوشته خشية غدره وكذا كان صلاح الدين يستشير مجلس حربه حين يعزم على الاتفاق مع العدو لإيقاف القتال [3].

عاشراً: أسلحة الجيش الأيوبي:

إن استمرار حالة الحرب مع الغزاة الصليبيين التي عاشتها المنطقة، لاسيما بلاد الشام، أدى إلى قيام صناعات حربية نشطة خاصة وأن هذه المنطقة تتوافر فيها بعض موادها الأولية إلى جانب فئة من الصناعيين المهرة، فبلاد الشام عرفت بتوفر مادة الخشب فيها من غابات الجبال الكثيفة، لاسيما أشجار الصنوبر والسنديان والبلوط والزان وغيرها، إلا أن المنطقة عرفت بقلة وجود الحديد فيها، وقد عوض المسؤولون - لاسيما صلاح الدين - عن هذا النقص باستيراد الحديد من إيطاليا وغيرها واقتصر وجوده على بعض أجزاء الشام والموصل، ومن الراجح أن هذا الحديد ظل يستخرج من مناجمه في عهد الحروب الصليبية، سواء من قبل المسلمين أو من قبل الصليبيين حين احتلوا هذا الجزء. هذا إضافة إلى غنى منطقة الموصل بالحديد والقير والنفط الأبيض الضروري لقاذفات النار [4] وكانت الموصل تمد صلاح الدين بين فترة وأخرى، بما تجود به أرضها وأيدي صناعها، فكانت ترسل إليه "

(1) كتاب الروضتين نقلاً عن الجيش الأيوبي ص238.
(2) سنا البرق (195/1) الجيش الأيوبي ص 239.
(3) الجيش الأيوبي ص 239.
(4) المصدر نفسه ص 264.

أحمالاً من النفط الأبيض ومن التراس والرماح ومن كل جنس أحكمه وأقومه وأجوده [1] وأما مصر فقد كانت غنية بأنواع الخشب التي استخدمت في صناعة السفن [2]، وأما أنواع الأسلحة فهي.

1 - الأسلحة الفردية:

أ - السيف. ب - الخنجر. ج - الرمح. ح - الفأس.

خ - العمود والدبوس. د - القوس. ذ - المقاليع [3].

2 - الأسلحة الثقيلة:

أ - النفط وقاذفات النار. ب - الآلات الجماعية، كالمنجنيق والدبابة وملحقاتها.

3 - أسلحة الجسم: المغفرة والبيضة، والجوشن والتجفاف

أي حارس البدن وكان لباس يرتديه الفارس ويلبسه حصانه كذلك، للوقاية من الإصابة بالنار [4] والمثلثات؛ آلة صغيرة تصنع من الحديد أو الخشب، ذات أطراف شوكية على هيئة مثلث مستدق الأطراف [5] وغيرها.

الحادي عشر: البحرية الأيوبية:

تغيرت استراتيجية صلاح الدين بعد انتقاله من الشام إلى مصر حين وجد في الأخيرة نقاط ضعف فشرع في تحصين مدنها وقلاعها وتنظيم الجيش لصد احتمال هجمات عليها وركز صلاح الدين على بناء قوات بحرية؛ لأنه أدرك أن قوة الفرنج في البحر وضعفهم في البر، وأنه لابد من بناء أسطول حربي لمنع القوافل الفرنجية البحرية التي كانت تعزز الممالك الصليبية في ساحل الشام بالمؤن والسلاح والرجال كلما اشتد عليها الضغط البري وإلى ذلك اكتشف صلاح الدين أن بنية الدولة في مصر ضعيفة ومخلّعة، وكان لابد له من إعادة تنظيم أمورها الإدارية والشرعية قبل المباشرة في مواجهة الفرنج، وهنا لابد من الانتباه إلى مسألتين أقدم عليهما صلاح الدين، إضافة إلى بناء أسطول حربي وتحصين الأسوار القلاع، وهما الأولى خطورة اتصال خطوط التجارة

(1) الفتح القسي ص 350.
(2) الجيش الأيوبي ص 264.
(3) المصدر نفسه ص 266 - 290.
(4) الجيش الأيوبي ص 323.
(5) المصدر نفسه ص 324.

والمواصلات بين البحرين المتوسط والأحمر واختلاف مصالح تجار مدن أوروبا المتوسطية عن طموحات أمراء الممالك اللاتينية في وسط أوروبا وغربها وشمالها فأقدم على توقيع اتفاقات تجارية معهم مقابل فك ارتباطهم مع ساحل الشام وفلسطين إلى البحر الأحمر واحتمال تهديد قوافل التجارة من الخلف إلى تعريض قوافل الحجاج المسلمين إلى الحجاز فأمر بإرسال جيشه إلى اليمن لتأمين خطوط التجارة البحرية وقطع الطريق على أعمال القرصنة والاعتداءات ضد قوافل الحجاج [1].

1 - نشاط البحرية الأيوبية:

بوسع الباحث أن يلاحظ ثلاث مراحل مرت بها البحرية الأيوبية:

أ - مرحلة التمهيد:

في هذه المرحلة، التي يمكن أن نطلق عليها مرحلة الإعداد ووضع الأساس لقيام أسطول أيوبي في مصر، قام صلاح الدين بجملة إصلاحات، فأعاد تنظيم الأسطول جاعلاً إياه ديواناً مستقلاً تحت إمرة أخيه ومنحه السلطة لأخذ ما يحتاج إليه من المواد وتجنيد كل الرجال الذي يحتاجهم فصار للدولة الفتية أسطول استطاع الدفاع - بدعم من قواته البرية - عن ثغور مصر اعتباراً من سنة 565هـ/1168 - 1169م واستمر الأسطول ينمو نمواً مطرداً، فما إن حل عام 575هـ/1179م إلا وتضاعفت عدته حتى بلغت ستين شينياً وعشرين طريدة، فسارت الشواني خاصة، فد خلت البلاد الرومية ودوخت السواحل الفرنجية، وأسرت ألف علج أحضرتهم أسرى في قيد الأسار، وقتلت الرفاق الكبار [2].

ب - مرحلة قوة الأسطول الأيوبي في مصر:

تمتد هذه المرحلة من سنة 575هـ/1180م وتنتهي مع بداية سنة 579هـ/1183م أي دامت حوالي أربع سنوات، استطاع الأسطول الأيوبي خلالها أن يقوم بجملة أعمال حربية هجومية ضد الأسطول البحري الصليبي، والرد على الأعمال العدوانية التي قام بها العدو بعد أن تضاعفت عدة الأسطول وقويت واستفرغت فيها عزائم الجهاد [3]، وأول فعالية حربية قام بها الأسطول الأيوبي هي صدامه مع العدو في معركة بحرية في

(1) صلاح الدين الأيوبي - وليد نويهض ص 94، 95.
(2) الجيش الأيوبي ص 352.
(3) كتاب الروضتين، نقلاً عن الجيش الأيوبي ص 353.

سنة 575هـ/1180م، وإحراز النصر عليه واستطاع أن يظفر ببطسة صليبية مستصحباً فيها ألف رأس من السبي ورافق هذا الانتصار البحري إحراز الجيش الأيوبي النصر في موقعة "بيت الأحزان" فعم النصر وتساوى فيها البر والبحر [1] ولم يكن من قبيل الصدفة أن يحرز الجيش الأيوبي هذين الانتصارين في وقت واحد، إذ أخذ صلاح الدين يتابع انتصاراته في سرعة بحيث لم يستطع الصليبيون معها ملاحقته، حتى إنه لم يكتف بالانتصار على العدو وتدمير بيت الأحزان، والإغارة على صور وصيدا وبيروت، بل إنه أمر الأسطول بالخروج ثانية من ثغور مصر للهجوم على عكا " قسطنطينية الشام" حسب تعبير القاضي الفاضل واستطاع أسر مراكب صليبية عديدة، فنزل عليها "تحطيما وتكسيراً ونطاحاً" وهذا مما لم يعهد من الأسطول الإسلامي مثله في سالف الدهر، لا في حالة قوة إسلام ولا ضعف كفر [2].

ولعل الانتصار الأكبر والأكثر صدى هو الذي أحرزه أسطول صلاح الدين في البحر الأحمر - بحر القلزم - ففي شعبان 578هـ/خريف 1182م استغل الأمير الصليبي المعروف أرناط "رينودي شاتيون" انشغال صلاح الدين بحصار الموصل، فأعد مشروعاً ضخماً وخطيراً قصد منه الوصول إلى أهداف عديدة منها:

السيطرة على البحر الأحمر،

باحتلاله إيلة على خليج العقبة، وعيذاب على الساحل المصري الجنوبي الذي يشرف على هذا البحر [3]، وكذلك احتلال جدة ورابغ على ساحل الجزيرة العربية ثم احتلال عدن، وبذلك تكون مياه هذا البحر تحت رحمة الصليبيين، ويسيطرون على طريقها على منافذ التجارة، ثم يصلون إلى مياه المحيط الهندي.

محاولة قطع الصلة بين الحرمين:

قلبي العالم الإسلامي، وبين بقية أجزاء هذا العالم، سواء في الاتصال البري أو البحري، وهذه المحاولة قصد بها استفزاز مشاعر كافة المسلمين وبعث موجة من الذعر والرعب فيهم، بل إن الصليبيين عزموا على دخول المدينة المنورة وإخراج رفات الرسول الأعظم ﷺ من ضريحه [4].

---

(1) كتاب الروضتين نقلاً عن الجيش الأيوبي ص 354.
(2) الجيش الأيوبي ص 354.
(3) عيذاب: بليدة وثغر مصر على بحر القلزم وهي مرسى المراكب.
(4) ابن جبير ص 34 الجيش الأيوبي ص 357.

إقناع مملكة الحبشة المسيحية بالعمل

على المشاركة في الحروب الصليبية، وقد استعد أرناط لتنفيذ مشروعه البحري من كل الجوانب، فأمر بقطع غابات المناطق الخاضعة له، وقطع نخيل منطقة العريش، فصنع هياكل سفن من أخشابها، وقام بتجربتها في مياه البحر الميت [1]، كما عهد إلى صليبي عسقلان بصنع مراكب أخرى، حتى صار لديه أسطول مكون من خمس سفن حربية كبيرة وعدد كبير من المراكب المتوسطة والصغيرة قام رجاله بنقل أجزائها مفككة إلى ساحل خليج العقبة على ظهر جمال مؤجرة يمتلكها بدو المنطقة بعد أن أغراهم بالمال [2]، ثم أحضر أرناط جيشاً برياً وسيره إلى بلاد تبوك للحيلولة دون وصول أي مدد عسكري قد يطلبه نائب إيلة من الشام أو مصر، واتخذ أرناط سبيله في البحر وتوجه نحو إيلة التي سقطت في يده بعد مقاومة قليلة، إلا أن قواته عجزت عن احتلال جزيرة القلعة "جزيرة فرعون" ولمنع أهلها من الحصول على الماء "فنالوا شدة شديدة وضيق عظيم [3]، على حد قول ابن الأثير. بينما انطلقت بقية سفن الأسطول للإغارة على الساحل الإفريقي وأخذو يغيرون على كل ما صادفهم في طريقهم حتى وصلوا إلى عيذاب واستولوا فيها على سفن تجارية زاخرة بالسلع قدمت من اليمن والجهات الأخرى كالهند وعدن وقد فرغ المسلمون حين شاهدوا مراكب الصليبيين تجوب عباب البحر الأحمر لأنهم لم يعهدوا بهذا البحر فرنجياً قط لا تاجراً ولا محارباً [4].

وأحدث الصليبيون حوادث شنيعة فأحرقوا نحو ستة عشر مركباً للمسلمين، وأخذوا مركباً يحمل حجاجاً، وأحرقوا مواد غذائية كانت معدة لميرة مكة والمدينة، هذا فضلاً عن حوادث القتل والأسر والتنكيل التي ارتكبوها في البر والبحر [5]، ومن عيذاب توجه الصليبيون إلى ساحل البحر الأحمر الشرقي - أرض الحجاز - فأشعلوا الحرائق في السفن الراسية "الحوراء وينبع " مينائي المدينة المنورة، ثم توغلوا إلى الجنوب حتى بلغوا "رابغ" من موانئ مكة وأغرقوا بالقرب منها سفينة كان يستقبلها الحجاج وتتجه

(1) الجيش الأيوبي ص 357.
(2) الجيش الأيوبي ص 357، رحلة ابن جبير ص 34.
(3) الخطط (86/2) الجيش الأيوبي ص 358.
(4) تاريخ ابن خلدون (655/5)، الجيش الأيوبي ص 358.
(5) مفرج الكروب (127/2)، الجيش الأيوبي ص 358.

نحو جدة [1]. وصلت هذا الأخبار في رسالة بعث بها مستحفظ قلعة إيلة إلى صلاح الدين وكان نازلاً على الموصل، فبعث السلطان إلى أخيه ونائبه على مصر الملك العادل أبي بكر، يحثه على اتخاذ ما يلزم للرد على المعتدين بالسرعة الممكنة، ويبدو أن الملك العادل استعد لتلك المهمة قبل أن يصله طلب أخيه السلطان [2]. فأوعز إلى قائد الأسطول الحاجب حسام الدين لؤلؤ بالاستعداد للعملية العسكرية وعمّر أسطولاً من السفن في مدينة مصر والإسكندرية ثم فك أجزاءها وحملها على الجمال إلى ساحل خليج السويس فوصلت الأجزاء بصحبة محاربين مغاربة، قاموا بتركيب تلك الأجزاء.

قسم الحاجب حسام الدين لؤلؤ سفن أسطوله إلى جماعتين، فسارت الأولى إلى قلعة إيلة واستولت على مراكب العدو برمتها، وقتلت أكثر من بها، إلا أن قسما منهم استطاعوا الهرب والاختفاء في شعاب ووديان المنطقة فسلط عليهم الحاجب رجاله فعثروا عليهم، وانقضوا عليهم انقضاض العقاب على صيدها [3] وأما الجماعة الثانية فوجههم نحو عيذاب ولم يجدوا فيها أحداً منهم فقاموا بتعقيب أسطول العدو فوجدوا قطعة راسية قبالة الحوراء، فنزلوا من المراكب وبدأوا بمقاتلتهم ومطاردة الفارين منهم وألقوا القبض عليهم وبلغ عدد من تم أسرهم (170) مائة وسبعين أسيراً وحرروا الأسرى المسلمين، ثم استولوا على مراكبهم وما فيها من بضائع [4].

عاد الحاجب بأسطوله المنتصر إلى مصر ومعه الأسرى وفي أرجلهم القيود وكان دخولهم الإسكندرية في 1 ذي الحجة 578هـ/1183م يوماً مشهوداً وصادف ذلك اليوم وصول الرحالة الشهير ابن جبير إلى هذه المدينة، فشاهد مجتمعاً من الناس عظيماً لمعاينة الأسرى من الروم دخلوا البلد راكبين على الجمال ووجوههم إلى أذنابهم وحولهم الطبول والأبواق [5] وأمر الملك العادل بضرب رقابهم وقطع أسبابهم بحيث لا يبقى منهم عين تطرف ولا أحد يخبر طريق ذلك البحر أو يعرف [6]، وتولى ذبحهم رجال الصوفية والفقهاء وأرباب الديانة[7] وكما جاء في رسالة القاضي الفاضل إلى الديوان الخليفي ببغداد: لم يكن في مقتل هؤلاء الكفار مراجعة، ولا للشرع في إبقائه فسحة، ولا

(1) الجيش الأيوبي ص 358.
(2) الجيش الأيوبي ص 359.
(3) المصدر نفسه ص 359.
(4) المصدر نفسه ص 359.
(5) كتاب الروضتين نقلاً عن الجيش الأيوبي ص 360.
(6) الجيش الأيوبي ص 60.
(7) المصدر نفسه ص 60.

في استبقاء واحد منهم مصلحة.. فليمض العزم في قتلهم ليتناهي أمثالهم عن فعلهم وقد كانت عظيمة ما طرق الإسلام بمثلها[1]. وتصادف أن كان الموسم موسم الحج فساق المسلمون معهم البعض من الأسرى إلى منى، لذبحهم كما تنحر البدن - الذبائح [2] وصادر نجاح أسطول صلاح الدين في الرد على عملية الإنزال الصليبي تجربة قاسية للمغيرين، وأسهم أكثر من أي حادث آخر في تعزيز شهرة صلاح الدين، وتقوية مركزه بين كافة المسلمين، وعزز أيضاً شهرة قائد أسطوله الحاجب حسام الدين لؤلؤ[3].

وأما مدبر الحملة الصليبية الأمير أرناط فقد استطاع الإفلات من الأسر والعودة إلى حصنه بالكرك كذئب كسيح يلعق جروحه [4]، ليواصل خططه ومشاريعه العدوانية ضد المسلمين إلا أن صلاح الدين أعلن بأنه لن يغفر له محاولته في انتهاك الحرمين، ونذر نفسه للانتقام منه [5]. ولم يستطع هذا الأمير الصليبي ولا غيره من القادة الصليبيين، أن يعيد التجربة المريرة في البحر الأحمر الذي ظل بحراً إسلامياً ولعل آخر نشاط قامت به بحرية صلاح الدين في هذه الفترة، خروجها في بداية سنة 579هـ/1183م إلى غياب البحر المتوسط للبحث عن سفن صليبية، فعثرت على بطسة عليها ثلاثمائة وخمسة وسبعون (375) مقاتلاً مع أسلحتهم [6] وعليها أموال وأسلحة يسيرون بها إلى الساحل الشامي المحتل، فقاتلهم المسلمون، وصبر الفريقان، ثم ظفر المسلمون، فأخذوا أفراد البطسة الباقين أسرى وعادوا بهم وبالغنائم إلى مصر [7].

مرحلة ما بعد حطين إلى صلح الرملة 583هـ - 588هـ:

واصل جيش صلاح الدين انتصاراته بعد انتصار حطين الحاسم في جبهات القتال المختلفة، سواء في فتح ثغور وحصون شمالي الشام أو فلسطين وغور نهر الأردن، إلا أن نشاط الأسطول ظل دون المستوى المطلوب في العمل العسكري وظل دوره في التخفيف عن الأعباء القتالية الثقيلة الملقاة على عاتق الجيش البري في فتح الساحلية محدوداً، وهذا الوضع لم يكن ناجماً عن ضعف البحرية الأيوبية بقدر ما كان راجعاً إلى

(1) الجيش الأيوبي ص 360.
(2) المصدر نفسه ص 360.
(3) الفتح القسي ص 341 الجيش الأيوبي ص 360.
(4) الجيش الأيوبي ص 361.
(5) مرآة الزمان (389/8) مفرج الكروب (185/2).
(6) مضمار الحقائق ص 50، الجيش الأيوبي ص 361.
(7) الجيش الأيوبي ص 361.

قوة البحرية الصليبية وكان صلاح الدين على علم بهذا الفرق، فلم يشأ أن يشترك أسطوله مشاركة جادة، ولخشيته من هجوم قد يقوم به العدو على الساحل المصري، إذا حشد كل قواته البحرية في الساحل الشامي، ولهذا نرى أن الجيش البري لم يقم بفتح القلاع والحصون الداخلية فقط، بل قام بفتح المدن البحرية كذلك كعكا وبيروت وعسقلان واللاذقية وغيرها.

إلا أن هذا لم يمنع أسطوله أن يضطلع ببعض المهام لمعاونة جيشه ففي صور ضاقت الحيل بجيش صلاح الدين وصار عليه أن يحارب في ثلاث جبهات، جبهة المدينة المحاصرة بسورها المتين، وفي الجبهة الشمالية، وكذلك الجنوبية المحيطة بالمدينة، حيث تلقفهم الصليبيون بالرمي من سفنهم الراسية في جانبي الموضع الذي يقاتل المسلمون منه أهل البلد، فيرمون المسلمين من جانبهم بالجروح، فكانت سهامهم تنفذ من أحد الجانبين إلى الجانب الآخر لضيق الموضع فكثر القتل والجراحات في المسلمين، ولم يتمكنوا من الدنو إلى البلد[1]، فما كان من صلاح الدين إلا وأرسل في إثر الشواني المصرية الراسية في مياه عكا التي تم فتحها حديثاً فوصلت هذه السفن في الوقت المناسب، فاستطاع المسلمون الاقتراب من سور البلد، فقاتلوه براً وبحراً وضايقوه، وكان من المتوقع أن تسقط هذه المدينة بعد هذا.

وفي ضوء هذه الاعتبارات صار للعمل الذي كلف به الأسطول أهمية خاصة وثقيلة، فمن واجبه أن يحاصر الميناء وأن يحول دون قدوم مساعدة بحرية للصليبيين إلى صور ولم يكن في استطاعة الحامية بسبب هذه الأحوال أن تصمد طويلاً [2]. إلا أن المسلمون تماهلوا في واجبهم والقيام بمهمة الحراسة للحيلولة دون اقتراب سفن الأسطول الصليبي من صور، فأثناء ما كانت خمس قطع من الأسطول الأيوبي تقوم بالحراسة ليمنعوا الصليبيين من الخروج من صور والدخول إليها تصوروا أنهم قد سيطروا على الوضع فأمن الحراس وناموا وقت السحر، فاستغل رجال البحرية الصليبية الفرصة للإيقاع بهم؛ فقتلوا من أرادوا قتله وأخذوا الباقين بمراكبهم، وأدخلوهم إلى ميناء صور، وأفراد جيش صلاح الدين في البر ينظرون إليهم.

وكان قائد الأسطول الإسلامي هو عبد السلام المغربي الذي يصفه ابن الأثير بالحذق في صناعته وشجاعته [3]، ومعه بدران الفارسي [1]، وقد استطاع بعض رجال

(1) الكامل في التاريخ نقلاً عن الجيش الأيوبي ص 363.
(2) تاريخ البحرية الإسلامية ص 363.
(3) الجيش الأيوبي ص 363.

الأسطول الذين أسروا في شوانيهم أثناء نومهم رمى أنفسهم من البحر، فمنهم من سبح ونجا، ومنهم من غرق أما الشواني الخمس الباقية فقد طلب السلطان من متوليها أن يتجهوا بها نحو بيروت "لعدم انتفاعه بها لقلتها" فسارت، لكن السفينة الصليبية تبعتها، فما كان من البحارة والمقاتلين المسلمين فيها، إلا وألقوا أنفسهم من شوانيهم إلى البر، فنجوا بأنفسهم تاركين شوانيهم، لكن صلاح الدين لم يدع هذه السفن تقع في أيدي الصليبيين فأوعز إلى جماعة من رجاله بالوصول إليها ونقبها ثم " عاد إلى مقاتلة صور في البر" [2] وكما هو متوقع فقد اغتم السلطان بسبب هذه النكبة، وفرح الكفار بتلك الضربة [3]، هكذا أخفق الأسطول الأيوبي في المشاركة في معارك إحدى المدن الساحلية التي كانت بيد الصليبيين وكانت هذه العملية هي الوحيدة التي قام بها هذا الأسطول في هذا المجال، ولم يكررها في فتح المدن الأخرى ولكن يلاحظ أن الأسطول عاد إلى نشاطه ثانية أيام الحصار الصليبي الطويل لمدينة عكا، لإنجاح هذه المدينة وتزويدها بما تحتاج إليه من عتاد وذخيرة ومقاتلين[4].

2 - أهم إصلاحات صلاح الدين البحرية :

من أجل إحياء البحرية في مصر قام صلاح الدين بجملة من الإصلاحات وهي:

أ - جعل غابات مصر ملكاً للدولة :

ولاسيما غابات مناطق "بهنسا وسفط وأشمونين وأسيوط وأخميم وقوص" وكانت قيمة العود الواحد تبلغ مائة دينار حسب قول المقريزي [5]، ولم يسمح بموجب هذا القرار لأحد بالتصرف بالأشجار، وذلك للانتفاع بأخشابها، وقد ظل هذا المبدأ معمولاً به إلى أواخر الدولة الأيوبية في مصر، على الرغم مما أصاب الأسطول من إهمال. وبهذا الصدد ذكر عثمان إبراهيم النابلسي المعاصر للدولة الأيوبية في مصر أن الحراج - الغابات - حكمها حكم المعادن وهي لبيت مال المسلمين، مالأحد فيها ملك ولا اختصاص [6] وصار مفعول هذا القانون يسري على المواد الضرورية التي تستوردها الدولة من الخارج أيضاً، لاسيما الحديد والخشب الضروريان لقيام صناعة السفن، فمما يذكر أن

(1) المصدر نفسه ص 363.
(2) المصدر نفسه ص 363.
(3) الفتح القسي ص 161.
(4) الجيش الأيوبي.
(5) الخطط (193/2).
(6) الجيش الأيوبي ص 332.

الدولة الأيوبية كانت لها صلات ومعاهدات تجارية مع جمهوريات المدن الإيطالية، حصلت بموجبها على حاجتها من هاتين المادتين [1]. ومما يؤكد سريان القانون المذكور على هذه المواد، ما يقوله المؤرخ النابلسي المصري المذكور في أن كل خشب وحديد ورصاص.. وغير ذلك من الأصناف التي ترد إلى الديار المصرية عن طريق البحر وإنما يبتاعه الديوان بكسب يسير، وذلك لصنع الشواني "سفن" وغيرها من المراكب والعمارات وخزائن السلاح [2] وكان في الإسكندرية ديوان سمي بالمتجر السلطاني عمله شراء البضائع المستوردة التي تحتاجها الدولة للأغراض العسكرية، لاسيما في بناء السفن، وكان المشرفون على المتجر يشترون هذه البضائع بأموال الخمس التي تفرض على التجار، وقد استفاد صلاح الدين في بناء أسطوله، إضافة إلى ما ذكرناه، من أخشاب الصنوبر والأرز التي تنبت في غابات لبنان، وكذلك من معدن الحديد الذي كان يستخرج من جبال لبنان بالقرب من بيروت [3]، وإذا صح هذا، فإن ذلك حصل بعد أن عادت تلك المناطق إلى المسلمين، أي بعد سنة 583هـ/1187م.

ب - أفرد صلاح الدين ديواناً خاصاً للأسطول:

عرف بديوان الأسطول وخصص للصرف عليه خراج الفيوم وأعمالها وخراج البرين الشرقي والغربي، ويضم البر الشرقي نواحي بهتين والأميرية والمنيا، والبر الغربي يضم ناحية سفط ونهيا ووسيم والبساتين خارج القاهرة، وكذلك خصيص حصيلة النطرون التي بلغ مقدار ضمانها يومئذ ثمانية آلاف دينار في السنة مضافاً إلى ذلك ما يحصل عليه من مال الزكاة في مصر، والذي بلغ أكثر من خمسين ألف دينار، إلى جانب أجرة المراكب الديوانية "الحكومية" [4].

ج - اهتم صلاح الدين برفع المستوى المعاشي

لرجال البحرية والعاملين في صناعة السفن وملحقاتها لتحسين أوضاعهم وتشجيع الناس على الالتحاق بصفوف البحرية والعمل في الأسطول، وتقرر أن يكون دينار الأسطول نصف وربع الدينار (3/4 الدينار) بعد أن كان نصف وثمن الدينار (5/8) أي بزيادة (17.5%) من قيمة الدينار السابق [5].

---

(1) المصدر نفسه ص 333.
(2) المصدر نفسه ص 333.
(3) أحسن التقاسيم نقلاً عن الجيش الأيوبي ص 333.
(4) الخطط (193/2) الجيش الأيوبي ص 334.
(5) الخطط (194/2) الجيش الأيوبي ص 334.

س - عين صلاح الدين شخصيات عسكرية هامة على رأس الأسطول:

فعلى الرغم من أن المصادر لا تشير إلى أسماء الذين عملوا في إدارة شؤون البحرية الأيوبية في السنوات الأولى من تاريخ الدولة الأيوبية، سوى اسم القائد البارز حسام الدين لؤلؤ الذي اشتهر في حادث الرد على عدوان أرناط، الذي تحدثنا عنه وكذلك أسماء قادة السفن من أمثال يعقوب الحلبي وجمال الدين محمد بن أرككز، وبدران الفارسي، ومحمد بن إسحاق وعبد السلام المغربي وغيرهم، إلا أن تعيين أخيه الملك العادل مسؤولاً عاماً لمؤسسة البحرية في السنوات المتأخرة، ليدل دلالة قاطعة على مدى اهتمام صلاح الدين بديوان الأسطول، وحين تسلم الملك العادل عمله أقام في مباشرته وعمالته صفي الدين عبد الله بن علي بن شكر [1]. أي أن العادل عين صفي الدين ليكون نائبه في الإشراف على إدارة الأسطول وقد منح صلاح الدين صاحب الأسطول صلاحيات واسعة لتنفيذ المهمات الخاصة بالبحرية، فبعد أن أتم صلاح الدين إعداد الأسطول سنة 572هـ/1176م كتب إلى سائر البلاد يقول: القول قول صاحب الأسطول، وأن لا يمنع من أخذه رجاله وما يحتاج إليه، وأمر صاحب الأسطول ألا يبارح البحر [2].

ش - اهتم صلاح الدين كثيراً بتحصين ثغور مصر:

وقرر القيام بعمليات واسعة في أوقات مختلفة لتعمير أبراجها وأسوارها، وحفر الخنادق حولها، وخصص لهذه المهمة مبالغ طائلة وعين عليها رجالاً أكفاء لتنفيذها مثل بهاء الدين قراقوش، الذي أوكلت إليه مهمة تجديد وبناء الكثير من المباني العسكرية وغيرها [3] وكان صلاح الدين يقوم بزيارات تفقدية للإشراف على عمليات التحصين والبناء الجارية في الثغور المطلة على البحر المتوسط لاسيما الإسكندرية ودمياط وكذلك تنيس، فإثر عودته من رحلته الأولى إلى بلاد الشام خرج في شعبان 572هـ/1176م ولداه الملك الأفضل علي والملك العزيز عثمان ومعهم العماد الكاتب المؤرخ المعروف وجعل طريقه على دمياط، ورأى في الحضور بالثغر ومشاهداته الاحتياط [4].

وفي سنة 577هـ/1181م رتب صلاح الدين المقاتلة على البرجين الواقعين على طرفي المدينة من جانب البحر، وأمر بشد المراكب إلى السلسلة ليقاتل عليها المدافعون

---

(1) الجيش الأيوبي ص 335.
(2) كتاب الروضتين نقلاً عن الجيش الأيوبي ص 335.
(3) وفيات الأعيان (91/4) الجيش الأيوبي ص 335.
(4) الجيش الأيوبي ص 336.

عنها، إذا استطاع العدو من الدخول بين البرجين وكذلك أمر في نفس السنة بترميم سور دمياط وسد الثلمات فيه، وفي وقت لاحق أمر صلاح الدين بحفر خندق دمياط، وعمل جسر عند سلسلة البرج بها [1] ثم غادر دمياط إلى ثغر الإسكندرية "وشاهدنا كما يقول المؤرخ - ما استجده السلطان من السور الدائر، وما أبقاه من حسن الآثار والمآثر، وما انصرف حتى أمر بإتمام الثغور وتعمير الأسطول [2]، وكانت هذه هي الزيارة التفقدية الثانية التي قام بها إلى الإسكندرية، وقام بزيارة ثالثة وأخيرة للإسكندرية في سنة 577هـ/1181م لمشاهدة الأسوار التي جددها والعمارات التي مهدها وأمر بالإتمام والاهتمام [3]، ومن التحصينات التي اتخذها صلاح الدين في الإسكندرية خلال هذه الزيارة أنه أمر فخر الدين قراجا بكسر أربعمائة عمود روماني كانت تحيط بعمود السواري، وإلقائها عند شاطئ البحر لمنع مراكب العدو من الوصول إلى مرساها، أو لكسر حدة الأمواج على سور الإسكندرية [4].

د - قام صلاح الدين بتشجيع الناس على الالتحاق بصفوف البحرية:

واستقدام العناصر الكفؤة من خارج مصر، وقد نجحت محاولته بسبب المغريات التي صار ديوان البحرية يوفرها لهم، أو يبث روح الجهاد في نفوس المسلمين وحثهم على التطوع وللعمل في الأسطول، حتى صار خدام الأسطول يقال لهم المجاهدون في سبيل الله والغزاة في أعداء الله ويتبرك بدعائهم الناس [5]. وقد ضرب صلاح الدين نفسه مثلاً رائعاً في الجهاد فقد ذكر مؤرخه ابن شداد الذي شاهد الكثير من أهوال البحر أن صلاح الدين التفت إليه ذات يوم في نهاية حوار دار بينهما وقال له: في نفسي أنه متى يسر الله تعالى فتح بقية الساحل قسمت البلاد وأوصيت وودعت وركبت هذا البحر إلى جزائرهم أتتبعهم فيها حتى لا أبقي على وجه الأرض من يكفر بالله أو أموت [6].

3 - دور المغاربة في الأسطول الصلاحي:

كان المغاربة أكثر من لبى نداء صلاح الدين للعمل في مجال البحرية وهم الذين عول عليهم في إعداد الأسطول المصري، حتى أصبح ذلك وقفاً عليهم على حد قول

---

(1) الجيش الأيوبي ص 339.
(2) المصدر نفسه ص 339.
(3) كتاب الروضتين نقلاً عن الجيش الأيوبي ص 337.
(4) الجيش الأيوبي ص 337.
(5) الخطط (194/2) الجيش الأيوبي ص 338.
(6) النوادر ص 22 الجيش الأيوبي ص 338.

المقريزي، لمعرفتهم الجيدة بشؤون البحر [1]، ومعروف أن شهرة المغاربة في المشرق قد ذاعت بصفة خاصة في الجهاد البحري لمهارتهم في قيادة السفن والملاحة، وفي فنون القتال البحري، ولهذا عرفوا بفرسان البحر منذ وقت مبكر، واستعان بهم الفاطميون، والأيوبيون والمماليك والعثمانيون في إدارة أساطيلهم البحرية، فالرحالة ابن جبير ينص على أن الحملات البحرية التي قادها حسام الدين لؤلؤ ضد الصليبيين في البحر الأحمر على عهد صلاح الدين كانت تضم عدداً كبيرا من إنجاد المغاربة البحريين [2].

ولعل أكبر دليل على اختصاص المغاربة بالأساطيل البحرية في ذلك الوقت هو ما ترويه المصادر من أن صلاح الدين أرسل سفيره عبدالرحمن بن منقذ إلى عاهل المغرب يعقوب المنصور الموحدي يطلب منه مساعدة بحرية لمنازلة ثغور الصليبيين بالشام. وعلى الرغم مما قيل من أن المنصور رفض طلب صلاح الدين لأنه لم يلقبه في رسالته بأمير المؤمنين أي لم يعترف بخلافة الموحدين، فقد ذهب المؤرخ المغربي السلاوي الناصري إلى أن المنصور أرسل إلى صلاح الدين مائة وثمانين سفينة حربية لمنع سفن الصليبيين من سواحل الشام [3] وكانت مشاركة المغاربة في جهاد الصليبيين في مصر أو الشام في المجالين البري والبحري ونجد في هذا الصدد مادة خصبة في كتب التراجم والرحلات التي تصف أعمالهم وبطولاتهم وتذكر أسماء من استشهد منهم ودفن هناك في فلسطين.

وحسبنا أن نشير بصفة خاصة إلى الرحالة الأندلسي ابن جبير الذي زار مصر والشام، فإن هذا الرحالة المغربي أعطانا معلومات قيمة عن نشاط المجاهدين المغاربة في الحروب الصليبية، فيشير مثلاً إلى الضريبة الإضافية التي فرضها الصليبيون في الشام على التجار المغاربة فقط دون سائر تجار المسلمين، والسبب في ذلك يرجع إلى أن طائفة من إنجاد المغاربة حاربوا مع السلطان نور الدين محمود زنكي، واستولوا على أحد الحصون الصليبية بعد أن أبدوا شجاعة نادرة كانت مضرب للأمثال فجازاهم الإفرنج على ذلك بأن فرضوا على كل تاجر مغربي يمر بمستعمراتهم في الشام ديناراً إضافياً عن سائر تجار المسلمين كعقاب لهم على شجاعتهم، وكذلك يشير ابن جبير إلى اهتمام ملوك المسلمين وأهل اليسار والخواتين من النساء في الشرق بفداء الأسرى من المغاربة لبعدهم عن بلادهم. هذا إلى جانب الأوقاف الكثيرة التي خصصت للمقيمين من

(1) النوادر ص 22 الجيش الأيوبي ص 338.
(2) الخطط (189/2) الجيش الأيوبي ص 338.
(3) الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى (163/2) بحوث في تارخ الحضارة ص 89.

المغاربة في الشام [1].

ودور المغاربة الجهادي مشرف، فقد كانوا دائماً متواصلين مع إخوانهم في المشرق في السراء والضراء في ميادين العلم وفي ساحات الجهاد وقد قدموا خبراتهم القتالية لإخوانهم المشارقة في عهد الزنكيين والأيوبيين ولم يبخلوا بقدراتهم العسكرية على الأيوبيين بل وظفوها من أجل التصدي للأساطيل الصليبية وهذا يبين لنا أن الشعوب الإسلامية دائماً تتفاعل مع بعضها وتنضوي تحت راية الإسلام الجهادية عندما تتعرض الأمة للخطر، ومن الدروس المهمة أن المسلمين تغلبوا بعقيدتهم ودينهم على دعاوى الوطنية الضيقة والقوميات فنور الدين تركي، وصلاح الدين كردي، ويوسف بن تاشفين بربري، والخليفة العباسي عربي وكلهم كانوا في جبهة واحدة تحت راية أهل السنة والجماعة.

ويعتبر حماية الأماكن المقدسة من الاعتداءات الصليبية أهم ما قام به الأيوبيون خلال حكمهم [2] ونستطيع أن نقول بأن صلاح الدين استطاع تكوين جيش بري وأسطول بحري مزود بكل متطلبات القتال من سلاح وعتاد ومؤن، بفضل تلك السياسة الحكيمة التي اتبعها لتنظيم جيشه، والتي قامت على بعث روح الجهاد الإسلامي في نفوسهم وتطبيق نظام الإقطاع الحربي في دولته ذلك النظام الذي تمكن بواسطته من ضمان الحصول على جيش منظم مزود بكل مستلزمات القتال، وقد ساهم هذا الجيش في تحقيق توحيد الجبهة الإسلامية، تمهيداً لبدء مشروع الجهاد الإسلامي لتصفية الوجود الصليبي من بلاد الشام، ولم يعد أمام صلاح الدين أية مشكلات تعيقه عن التفرغ لجهاد الصليبيين واسترداد بيت المقدس [3]، إلا توحيد الجبهة الداخلية وهذا ما سنعرفه في المبحث القادم بإذن الله.

* * * * *

(1) بحوث في تاريخ الحضارة الإسلامية ص 85.
(2) بلاد الحجاز منذ بداية عهد الإشراف ص 44.
(3) صلاح الدين والصليبيون ص 153.